الكاتب والأديب عبد الإله الديب

عبد الإله الديب

عفوا ابن فلة
فأنا لا أعرف لك أبا

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى يونيه 2020

بطاقة الكتاب

عنوان المؤلف	عفوا ابن فله فأنا لا أعرف لك أبا
المؤلف	عبد الإله الديب
التصنيف	قصص
رقم الإيداع القانونى	2020 - 5367
الترقيم الدولى	978-977-6771-67-3
رقم الإصدار الداخلى	594 الطبعة الأولى يونيه 2020
عدد الصفحات	98 صفحة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى دارنشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب أو ترجمته أو الإقتباس منه أو نشره على النت الا بموافقة كتابية وموثقة من المؤلف

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع
ثورة مصرية تشرق إبداعاً على الوطن العربي
رئيس مجلس الإدارة
ناجى عبد المنعم
مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع
أسسها الشاعر ناجى عبد المنعم عام 2017
رخصة مزاولة مهنة:58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35–01–572
عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018
هاتف:01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس:020554372901
nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات
alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat
المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – أمام سنتر الـ13 – عقار 304

الإهداء

إلى كل متذوق للفن الراقى الهادف .

عبدالإله الديب

تنويه :

هذه هى المجموعة القصصية الثانية التى تصدر لى عن مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع ، وهى مستوحاة جميعها أو أغلبها من ريف مصر العظيم الذى أشرف بالانتماء إليه .

وقد راعيت فى مفرداتها البساطة المستمدة من تكوينى ، حتى لا أجهد القارئ وأشتت فكره فى اللهث وراء كلمات مقعرة ، وأحمله هما فوق همومه ، وإنما أحاول إدخال البهجة إلى نفسه ولو لثوان قليلة ، فمهمة الأديب هى الإسعاد والإرشاد ، ويقول الأستاذ الدكتور / محمد مندور – الناقد الأدبى " أن الأديب يعمل فكره للقضاء على مواضع الضعف والانهيار الخلقى والاجتماعى ، وتلك أفات نفسية لا يستطيع استئصالها سيف ولا قانون ، وإنما تستأصلها الكلمة الشريفة ومالها من سحر فى النفوس ، ولا مانع أن تحتوى القصة بين ثناياها على النزعة التعليمية أو الحث على الإقلاع عن تقليد مرذول ".

ويقول الأستاذ / محمد محمود عبدالرازق - فى كتابه فن معايشة القصة القصيرة :

" للقصة القصيرة قوالب متعددة ، ولا يجرؤ أحد على صبها فى قالب واحد ، أو على النهج بكتابتها بطريقة معينة ، فلكل شيخ

طريقة ، وكل قصة عند الشيخ الواحد لها طريقتها الخاصة ، إلا عندما تنهك قواه الإبداعية أو يغتر بها ويأخذ فى تكرار نفسه " .

ويرى البعض أن تصوير السلبية فى المجتمع هو محاولة لكشف هذه السلبية لكى تعطى أثرا إيجابيا ، أما أنا فلا أحب أن أحبس نفسى فى مذهب معين من مذاهب الأدب المتعددة كالوجودية والرمزية والتعرية والواقعية وخلافه ، فطالما أن هناك شيوخا ، ولكل منهم طريقته ، فلمّ لا يكون لى أنا الآخر طريقا خاصا بى ، أكون أنا أول من سلكه وليتبعنى المريدون ، طالما أن فنى يرتقى بالذوق العام ويفسر ويوضح وينقد الحياة وأحداثها ويحلل دوافع سلوك البشر .

والله أسأل أن يلهمنا السداد فى أعمالنا والصواب فى أقوالنا .

عبدالإله الديب

الغربية فى يناير 2020

ت :01228680156

0106587081

لكل ساقطة لاقطة

نورى العويل ، رجل فى الأربعين من عمره ، حاصل على دبلوم المدارس الثانوية الفنية ، متزوج ويعول أربعة أولاد ، يمتلك فدانين من أجود الأراضى الزراعية ، ويجيد تربية العجول والجاموس الحلاب ، ويزاول جميع الحرف اليدوية كأعمال الكهرباء والسباكة والنقاشة والنجارة ، ويهوى السمسرة فى الأراضى الزراعية والحيوانات وكل ما يباع ويشترى ، ومع كل ذلك لا تجد وفاقا بينه وبين العملات الورقية ، فجيوبه خاوية على الدوام ، ويعيش عيشة ضنكا ، رغم أنه يتكسب الكثير من الأموال من مصادر شتى ، لا يتحرى فيها الحلال من الحرام .

قاطعه أهل قريته ، ورفضوا التعامل معه إلا عند الضرورة ، فهم يعرفون فساد أخلاقه وسوء تصرفاته ، ويتطيرون لمجرد مرآه ، وينتظرون حلول المصائب بالمكان الذى يتواجد به ، أما هو فعلى وفاق دائم مع نوائب الدهر وبلايا الأيام ، وكأنه وقع معاهدة مع تلك النوائب على ألا يفترقا .

وقد اعتاد ذلك فى تبلد وبلاهة ، فبين الحين والحين يستيقظ أهل القرية على صراخ وعويل زوجته ، ويتبينوا أن إحدى بهائمه قد نفقت ، أو أن حريقا شب فى بيته فأتى على الأخضر واليابس ، أو أن ابنا من أبنائه قد استل سكينا ولاحقه يريد الخلاص منه دفاعا

عن أمه ، أو أن أحد الدائنين جاءه متوسلا الوفاء بدينه ، فلا يوفيه دينه ولا يستمهله لحين ميسرة ولا يستقبله بالحسنى ، فيشتبكا بالأيدى ويشتد الوطيس وتعلو الصرخات ، ويتجمع المارة ، ويزيد الهرج والمرج .

ورغم كل ذلك فإن " نورى العويل " لا يترك مناسبة إلا ويقحم نفسه متطفلا ويكون أول الحضور ، ففى الأفراح يستقبل المدعوين ، ويجلسهم كل فى المكان الذى يتصور أنه اللائق به ، ويشرف على الطاهى ، وبطبيعة الحال سيشارك فى طعام الوليمة فى التوقيت الذى يحلو له ، ويتناول ما لذ وطاب مما لا يتيسر لسواه ، وفى الأتراح يرص الكراسى ويستقبل المعزين ، ويتدخل فى كل ما يدور ، من أعمال الفراشة والكهرباء وخلافه ، ويشارك فى طعام الوضيمة ، بالإضافة إلى ما يتيسر له من إكرامية ابتداء من النادل الذى يسقى الشاى والقهوة وانتهاء بمقرئ القرآن الكريم .

لم يجد " نورى العويل " فى القرية صدرا حنونا سوى " نزيه سيد الأهل " ــ من أعيان القرية وابن عمدتها ، عليه أبهة السلطة ، كريم جواد يشمل الجميع بعطفه ونفعه ــ مهندس بإحدى الهيئات المرموقة بعاصمة المحافظة ، يذهب إليها صباح كل يوم بسيارته الفارهة ، ويعود فى الرابعة عصرا أو بعدها بقليل ، يجله ويقدره أهل القرية والقرى المجاورة ويسعون لكسب وده .

اعتاد " نورى العويل " زيارة " نزيه سيد الأهل " فى منزله الشبيه بالقصر ، والذى تحوطه أشجار الفاكهة من كل صوب

، وتنتشر به نباتات الزينة وصنوف مختلفة من الورود ، وبدوره يغدق عليه العطايا ويتحين المناسبات ليفيض عليه بالمال الوفير والملابس الفاخرة له ولأفراد أسرته .

فى زيارة من زيارات " نورى العويل " لمنزل " نزيه سيد الأهل " ، وعقب انصرافه اكتشف " نزيه " اختفاء " ولاعته " الثمينة والتى كانت زوجته قد أهدته إياها بجانب بعض الهدايا الأخرى بمناسبة عيد زواجهما ، وفى زيارة أخرى اختفت مرمدة سجائره التى أحضرها من إحدى الدول الأوربية ، أثناء حضوره مؤتمرا من المؤتمرات ممثلا للهيئة التى يعمل بها ، تلك المرمدة التى تحتوى على إضاءة مبهرة وعداد يذكره بعدد لفافات التبغ التى أطفأها وموضع مخصص لحفظ السجائر وولاعة ذاتية الإشعال ، وفى مرة ثالثة اختفت " قاروصة " سجائر أجنبية رغم أنه كثيرا ما يعطيه مثلها ، وتوالت الاختفاءات ، ولكنه دائما ماكان يحتفظ بهدوئه ووقاره دون ضجر .

وفى زيارة من الزيارات ، كان " نزيه " يعانى من نزلة برد ألزمته الفراش ، واصطحبه أحد الخدم إلى غرفة نومه ، وصحا " نزيه " مكرها وذهب إلى الحمام ، وعند عودته لمح " نورى " يعبث بجيوب "جاكتته " وبنطاله وسائر ملابسه المعلقة على مشجب بجوار سريره ، وأخذ بعض العملات الورقية ودسها مسرعا فى ملابسه عندما سمع وقع أقدامه ، وجلس مكانه متظاهرا بالحزن والوقار .

فكر " نزيه " للحظات فى تأنيبه بل وتأديبه ، وطرده من منزله إلى غير رجعة ، ولكنه سرعان ماتراجع ، واسترخى فى سريره مبتسما ، وأوصى له ببعض الطعام ، فمثل هذا يعشش الشر داخل نفسه ، فاللؤم والخسة والندالة موروثة عن أبائه وأجداده ، ومن المؤكد أنه فى حالة طرده سيتمادى فى شروره ، وستطال أثامه الكثير من بسطاء الناس ، ففضل تركه تحت بصره ورهن إشارته ، بالإضافة أنه يتخذه وسيلة لفض الكثير من المنازعات فى قريته ، فكل امرء ميسر لما خلق له ، فهناك فئة من الناس قليلى الحياء معدومى الأدب ، لا يستجيبون عند المنازعات لأصحاب الخلق الرفيع ، وإنما ينصاعون لحثالة القوم وأشرارهم خشية منهم واتقاء لشرهم .

عاتب الكثيرون من الأهل والأصدقاء " نزيه سيد الأهل " لصداقته لذلك الأذعر واستقباله وضيافته بمنزله ، ولكنه كان يتعلل باحتياجه إليه فى إصلاح بعض أعطال الكهرباء والسباكة البسيطة ، وأنه يجنبه البحث عن أصحاب تلك المهن التى ندر وجودهم ، فالعثور على مئات الأطباء أيسر بكثير من العثور على واحد من هؤلاء الحرفيين .

استرخى " نزيه " فى فراشه أكثر وأكثر محدثا نفسه : " لكل ساقطة لاقطة " ، ولكل مزهود فيه راغب ، ولكل كلمة سقطت من فم الناطق من يسمعها ويذيعها . وشعر برضا واقتناع فى احتوائه هذا الوبش ، بدلا من تركه يوزع رزائله على كل من يصادفه .

زينة الحياة

جلست " راضية " فى باحة دارها تترقب وصول نجلها " عيسى " ــ آخر العنقود ــ من قاعة الأفراح وبصحبته عروسه الحسناء ، لتملأ حياتها بهجة ، وتملأ الفراغ الذى خلفه زواج ابنتيها " زينب " و " عائشة " واللاتى لا تترددن عليها إلا على فترات متباعدة ولأوقات خاطفة ، واعتادت هى التردد عليهن وقضاء حوائجهن كلما اشتاقت نفسها لرؤيتهن.

ذرفت عيناها الدمع رغم محاولاتها حبس تلك الدمعات ، وكم كانت تتمنى أن تكون بجواره فى ليلة العمر ، ولكن ألام مفاصلها حالت بينها وبين تلك الأمنية ، فبقيت عن طيب خاطر فى دارها تنتظر مجيئه ، ورجعت بذاكرتها للوراء لأكثر من ثلاثين عاما ، تسترجع أحداث أربعة عشر عاما أمضتها دون إنجاب ، ترددت خلالها على العديد من عيادات أطباء أمراض النساء والولادة ، وأجرت العديد من العمليات الجراحية ، والكثير من الأشعات والتحاليل ، ولكن كل ذلك لم يشفع لها ويحقق أمالها ، حتى اعتقدت أنها لن تكون أما فى يوم من الأيام ، ولكن كان هناك بصيص من أمل يراودها بين الحين والآخر ، وكانت دائما تتعلق بحبائل رحمة ربها الواسعة ، وتقطع خيوط اليأس البالية .

وفى ليلة من الليالى استبد بها اليأس ، وأحست بتأنيب الضمير وأنانيتها التى فاقت كل الحدود ، وظلمها لـ " درويش " زوجها ، وحرمانه أن يكون أبا كسائر خلق الله ، رغم أنه ملتزم الصمت دائما ، هادئ أحيانا ، وشارد أحيانا أخرى ، لا يقترب من الحديث معها عن الإنجاب ، حتى لا يوقظ لديها مشاعر الأمومة الناعسة ، أو يشعرها ببواطن النقص ، ولم يفكر يوما فى اللجوء إلى ما أحله الله له ويحضر لها ضرة تشاركها فيه ، وتجعلها لا تمتلك سوى نصف رجل ، فاقتربت منه ، وجلست بين يديه ، وأخذت تدقق النظر إليه دون أن تنطق ، فبادرها " درويش " قائلا :

-إنت عاوزة تقولى حاجة يا " راضية " .

أيوة ياخويه .

طظيب مه أنا قاعد قدامك أهه .

انخرطت " راضية " فى بكاء مرير وبصوت متهدج النبرات يملأه الذل والانكسار ،

قالت :

- روح اتجوز ياخويه ، أنا مش هحرمك من العيال .

وقعت كلماتها عليه كالصاعقة ، فهو لم يفكر فى هذا الأمر من قبل ، ولم يخطر له على بال ، وأحس بانكسارها وبالذلة والمهانة التى تغلف كلماتها ، والتزم الصمت للحظات ، وبصوت خفيض

أخبرها أنه رجل مؤمن راض بقضاء الله وقدره ، وأنهما فعلا كل ما فى وسعهما ، ولم يتركا بابا إلا وطرقاه ، وقد منعهما الله لحكمة يعلمها ، وقد يكون فى ذلك المنع قمة العطاء .

صمت " درويش " قليلا ومسح دمعة تنحدر ببطء على خده ، وحاول أن يبدو متماسكا وقويا ، وبصوت أجش وبلهجة آمرة ، قال :

- أنا لن أتزوج ، ولن تذهبين لأى طبيب مرة أخرى ، ولن أسمح لك بتناول قرص "أسبرين " حتى لو كان هذا القرص سيجعلك تنجبين " عنترة بن شداد " ، خلاص دى إرادة ربنا وأنا راض بها .

ولفهما صمت ممل ، ولم ينبس أحدهما ببنت شفة ، وتسلل كل منهما إلى مخدعه يخفى ألامه وأماله بين ضلوعه .

مرت ثلاثة أشهر لم يتطرقا خلالها للحديث عن الإنجاب ، وتجنب كل منهما أى حديث ينغص عيش شريك حياته ، وتفانى كل منهما فى إدخال البهجة على الآخر ، إلى أن جاءت ليلة أقلقت مضجع " راضية " ، فقد هاجت نواجزها وأحست ألما شديدا لا يحتمل ، فأخذت تتألم وتتوجع ، فأسرع " درويش " يعد مغلى حبة البركة ، ويقدم لها أعواد القرنفل لتضعها على موضع الألم ، ولكن ألمها أبى أن يفارقها ، فأخذ يصف لها بعض الوصفات الشعبية دون جدوى ، وظلت على حالها إلى أن غلبها النعاس

وراحت فى سبات عميق ، فحمد الله وتمدد بجوارها فى حذر وهو يعتصره الألم .

عندما أبلج الصبح ونشرت الشمس أشعتها الذهبية على الكون ، أيقظ " درويش " زوجته واصطحبها إلى إحدى عيادات الأسنان الشهيرة ، وهناك فحصها الطبيب ، ووصف لها العقاقير الطبية اللازمة ، وأعطاها قصاصة ورق وطلب منها أن تجرى التحاليل المدونة بها بالمعمل المجاور وتعود له بالنتيجة .

أجرت " راضية " التحاليل المطلوبة ، وعادت بالنتيجة ، وبنظرة خاطفة أخبرها الطبيب أنه لن يستطيع خلع ذلك الضرس ، ففى ذلك خطر داهم على حملها ، وأوصاها بالانتظام فى تعاطى المهدئات التى أوصى بها ، وألا تتناول أية أدوية إلا بعد الرجوع لطبيب النساء والولادة .

اصطحب " درويش " زوجته إلى منزلهما وقد أذهلتهما الفرحة ، وفى طريق العودة ، كلما رأى أحد أقاربه أو معارفه صاح بأعلى صوته :

- المدام حامل ، افرح لأخيك ، المدام حامل .

بعد مضى ستة أشهر ، وضعت " راضية " أنثى أسمياها " زينب " ، وبعد انقضاء أقل من عام وضعت مولودها الثانى أنثى أسمياها " عائشة " ، وتلاهما " عيسى " دون أن تدرى ، فلم تشعر بأعراض الحمل ولا أوجاع الولادة .

عاد " درويش " من عمله ذات يوم ، فوجد زوجته قابعة واضعة يدها على خدها ، فى نفس المكان الذى كانت تجلس به يوم طلبت منه أن يبحث له عن زوجة ، فاستفسر منها عما دهاها ، فأخبرته أنها تبغى الاكتفاء بالأولاد الثلاثة وتنوى الذهاب إلى الوحدة الصحية ليصف لها الطبيب وسيلة مناسبة لمنع الحمل .

لم تكد " راضية " تكمل جملتها الأخيرة ، حتى قفز وأخذ بتلابيبها ، وأخذ يضيق عليها الخناق ، وهو يثرثر ويزبد ويصرخ بكلمات أعجمية لم تتبين منها شيئا سوى كلمة الطلاق التى تكررت عدة مرات ، ثم دفعها بشدة وقد انتفخت أوداجه ، وجلس ترتعد فرائصه.

هدأ " درويش " وبصوت ضعيف النبرات يحمل حكمة السنين أخبرها أنها لو فعلت شيئا من وراء ظهره مما ذكرته ، فلن يكون سوى الطلاق .

وصمت قليلا ثم استطرد وكأنه يحدث نفسه : منعنا الله الأولاد فلم نسأله ونتوسل إليه ، بل لجأنا إلى غيره من خلقه ، ولم يستطيعوا أن يغيروا من الأمر شيئا ، وعندما يئسنا رضينا مكرهين بقضائه وقدره ، ولما منَ الله علينا بالذرية بعد أن كنا أشهر عقيمين فى البلدة كلها بل وفى البلاد المجاورة ، تتمردين على قدرة الله .

اقتنعت " راضية " بما قاله زوجها ، وأخذت تستغفر ربها ، وتعلن توبتها ورضاها بما قسمه الله ، وبما ستجود به الأيام .

أجدبت " راضية " ولم تنجب بعد " عيسى " دون أى تدخل لبشر ، وسمعت صخبا وضجيجا وتعالت أبواق السيارات ، فأفاقت من غفوتها وأيقنت أن ولدها عاد وبصحبته عروسه فأجهشت بالبكاء ، وعندما دخل البيت أسرعت إليه وضمته هو وعروسه إلى صدرها وسط أهازيج الفرح وغزارة الدموع .

الوهم

رأيتها للمرة الأولى عندما أتت إلى الهيئة التى أعمل بها ، واستقرت إزائى بجوار " مريم" - محامية بذات الإدارة - التى استقبلتها بشغف وضمتها إلى صدرها ، وطبعت عدة قبلات على وجنتيها قائلة :

- وحشانى أوى يا سما يا حبيبتى .

اختلست نظرة خاطفة دون أن تدرى ، ووجدت نفسى مشدوها بجمالها ، وانتابنى إحساس غريب لم ينتابنى من قبل ، رغم توافد العشرات من الطبقات الراقية يوميا إلى تلك الإدارة ، وسرت فى جسدى قشعريرة خفيفة ، إنها رقيقة حالمة تحمل بين ضلوعها قلبا شفافا يحوى حبا يكفى العالم بأسره ، خيل إلىَ للوهلة الأولى أنها تحلق فى الفضاء وتعلو إلى عنان السماء ، لتستقر هناك فى مصاف الملائكة ، إن من أطلق عليها اسمها كان محقا ، وكأنه كان متيقنا مقدما من سمو قدرها وعلو شأنها .

تبادلت " سما " وصديقتها " مريم " أطراف الحديث فى رقة وعذوبة ، وتطرقتا إلى عهد الطفولة وأيام الصبا المبكرة ، وبين الحين والحين تهمس إحداهن فى أذن الأخرى بكلمات تنطلق بعدها ضحكاتهن مجلجلة .

همت" سما " بالانصراف ، وقد تلاقت عيناى بعينيها عن قصد من جانبى وبدون قصد من جانبها فى نظرة خاطفة ولكنها عميقة ، وانصرفت كالفراشة فى خفة ودلال ، وتبعها قلبى رغما عنى ، وتمنيت لو تحتفظ به ولا تدعه يعود .

مر يومان ، أتت بعدهما " سما " تتهادى فى مشيتها وكأن الأرض لا تحتمل وقع خطواتها الرتيبة ، واستقرت بجوار " مريم " ، وتلاقت العيون فى نظرة متأنية بعض الشئ ، كانت تلك النظرة أشد فتكا من سابقتها ، اعتقدت أن الله أرسلها إلى هنا خصيصا من أجلى ، وأنه سيجمعنى حتما بها كى أستشعر لهيب أنفاسها عن قرب فى الحلال ، وقررت أن أنشر شباكى بإحكام حتى أتمكن من قنص ذلك الصيد الثمين .

ما كانت أشد فرحتى عندما علمت أن " سما " قد عينت مهندسة مساحة بالهيئة ، وأننى سأتمكن من مرآها أمامى وبجوارى وعلى مقربة منى يوميا ، لقد أصبحت أراها فى صحوى وفى منامى ، أغمض عينىَ فأرى صورتها أمام ناظرىَ ، أصم أذانى فأسمع نغمات صوتها تدغدغ شغاف قلبى كهدهدة طائر وقت السحر ، وخيل إلىَ أنها تبادلنى نفس إحساسى وتهيم بى حبا كما أهيم بها ، وربما تخطت تلك المرحلة ، وارتقت إلى مرحلة العشق ، ولم لا ، وأنا الشاب الوسيم ، ذو المنصب المرموق ، ويشار إلىَ بالبنان ، وأنحدر من أسرة تليدة ، ترث المجد كابرا عن كابر ، إنه شرف لا يدانيه شرف أن تحمل اسمى وتقترن بى .

مرت عدة أيام دون أن أراها ، فخرجت من مكتبى أهيم على وجهى أتسكع فى الطرقات لعلى أراها دون جدوى ، ومنعنى كبريائى أن أستفسر من صديقتها " مريم " عن سر اختفائها ، قلت حيلتى ونفذ صبرى وأحسست بانقباض صدرى ، وضيق الدنيا فى وجهى .

تعففت عن بعض كبريائى ، وتخليت عن حيائى بدافع من وجدى وشغفى بها ، وأسرعت إلى إدارتها ، ذلك المكان الذى عبق بشذى أنفاسها ، واستمتع بوطء أقدامها ، وقررت أن أفصح لها عما يدور بداخلى ورغبتى فى الاقتران بها ، وهناك كانت الصدفة عنيفة غير متوقعة عندما علمت أنها حصلت على أجازة بدون مرتب لمدة عام لمرافقة زوجها الذى يعمل ببلاد العم سام ، ورجعت إلى إدارتى بخفىَ حنين .

شاهت الأمور فى مخيلتى ، وأصبحت لا أدرى عما إذا كان القدر الذى وضع "سما " فى طريقى كان بى رحيما أم قاسيا ، فإنه إن كان أسعد قلبى أياما ، فسوف يتركه يدمى سنوات .

بعد طول تفكير ، وبعد جلسة متأنية مع النفس أيقنت أن الزمن كفيل بأن ينسى المرء كل أحزانه مهما ثقلت ، فالنسيان نعمة أودعها الله قلوب البشر رحمة بهم ، ولولا تلك النعمة لامتلأت المصحات النفسية بأصحاب القلوب المرهفة .

جلست إلى مكتبى ، أنهى الأعمال الموكلة إلى ، متوهما أننى عدت قويا كسالف عهدى ، وأيقنت أن كل ما تخيلته ما كان إلا وهما

فى مخيلتى وحدى ، فهى لم تبادلنى شعورى ولم تخدعنى ، وفجأة انطلقت ضحكاتى مدوية تهتك قدسية المكان وسط دهشة كل زملائى ، وهم يرموننى بخليط من نظرات الشفقة والتشفى .

ألتزمت الصمت أتفحص وجوههم ، فشر البلية ما يضحك .

عفوا ابن فلة فأنا لا أعرف لك أبا

وعدنى صديق لى - ضابط متقاعد – بإهدائى جروا عندما تلد كلبته " فلة " الألمانية الجنسية ، التى أحضرها من موطنها الأصلى ، ومعها صحيفة بيانات أساسية تحوى تاريخ أسرتها المرضى ، والإرشادات الواجب اتباعها فى حالة إصابتها بمكروه – لا قدر الله – والمراكز البيطرية المعتمدة الواجب التوجه إليها لتوقيع الكشف الطبى أو فى حالة تزويجها بذكر من نفس الفصيلة حتى لا تأتى الجراء " هجين " ، ورغم أننى لست من هواة اقتناء تلك الحيوانات وتعف نفسى عن التعامل معها ، إلا أننى تظاهرت بالرضا والسعادة أمام حماس صديقى هذا ، وفخره واعتزازه وتقديره لهذا النوع بالذات ، وبقدراته الفائقة على اكتساب المهارات التدريبية ، وبذكائه الذى يفوق الحد فى فهم الأوامر التى تصدر إليه ، ولا سيما فى أعمال الحراسة الليلية .

ومضت عدة أشهر ، وكنت قد نسيت وعد صديقى هذا الذى قطعه على نفسه ، وفوجئت به يطرق بابى مصطحبا كلبا كبير الحجم ، مطوق بطوق جلدى ومشدود بجنزير حديدى ، وعندما لمح الدهشة تنبعث من خلال نظراتى لهذا الوحش ، أخبرنى أن عمره لا يتعدى الثلاثة أشهر .

أدرك صديقى حذرى وتوجسى من الاقتراب منه أو التعامل معه ، فأخذ يصدر إليه بعض التعليمات ، وفوجئت بأن ذلك الكلب يستجيب بسرعة فائقة وينفذ بكل دقة ، ثم اصطحبه ودار به فى الفراغ الذى يحيط بمنزلى من الجهات الأربع وبمجرد أن أكمل دورته تلك واستقر بجوارى نظر إليه ، وهتف :

حراسة .

دار الكلب حول المنزل دورة كاملة ، ثم وقف بين يديه وهو يهز رأسه كأنه يخبره أنه

نفذ المطلوب على الوجه الأكمل ، فدلك صديقى جبهة ذلك الكلب ومسح على ظهره وأشار بيده إلى حديقة صغيرة أمام منزلى قائلا :

نام .

نفذ الكلب الأمر الذى صدر إليه ، وجلس صديقى بجوارى على أريكة خشبية فـــى مقدمة تلك الحديقة ، وأخذ يسدى إلى بعض التوجيهات فى كيفية التعامل معه ، وما يحبه هذا الكلب وما يكرهه ، والأكلات المفضلة والكميات المقررة ، وطلب منى أن أهاتفه فورا إذا استعصى علىَ أمر ، وأمضى معى بعض الوقت ثم استأذن وانصرف .

خصصت كشكا خشبيا بالحديقة ليكون مسكنا لهذا الكلب ، ووضعت له إناء لشرابه وآخر لطعامه ، ونفذت الجدول الغذائى بحذافيره وتوليت هذا الأمر بنفسى ، وداومت عليه حتى صار عادة

، واعتاد هو الآخر علىَ ، وأيقن أننى المسئول عن معيشته لدرجة أنه يرفض الطعام إذا قدمه سواى ، أما أنا فسعدت بذلك ، وقدرت تلك الثقة التى منحنى إياها ، وعملت جاهدا لأكون أهلا لها ، وسارت الأمور على ما يرام كل منا ينفذ واجباته عن رضا وطيب خاطر ، فهو يمضى نهاره نائما فى كشكه الخشبى أما ليله فيمضيه يقظا يلف ويدور حول المنزل ، ولا يدع مجالا لأى مخلوق أن يقترب من محل حراسته .

أطلقت اسم " ابن فلة " على ذلك الكلب ، وعرف به وذاع صيته ، وفى بداية الأمر سيطر علىَ الحزن والألم كونى نسبته إلى أمه خشية أن أكون جرحت شعوره وأصبته بالحرج وسط أقرانه ، ولكن حزنى وألمى زالا عنى عندما وجدته راضيا باسمه ولم يتذمر

اضطررت للسفر فى مهمة خاصة تستغرق أسبوعا ، وأوصيت كل من بالمنزل بتلبية مطالب " ابن فلة " ، وكانوا بطبيعة الحال علموا كل شئ عنه .

بعد يومين فقط ، اتصل بى أخى وأخبرنى أن " ابن فلة " أضرب عن الطعام منذ سفرى ، وأنه يقضى يومه عابسا غير مكترث بأى شئ ، أما ليله فيقضيه فى الحراسة كمن يؤدى عملا مفروضا عليه لا يستسيغه ، وطلب منى العودة فورا .

حزمت حقائبى وعدت أدراجى فى صبيحة اليوم التالى ، وبمجرد أن لامست قدماى مدخل منزلى إزاء الحديقة التى يقطنها "

ابن فلة " ، صحا من غفوته وكأنه اشتم رائحتى وأقبل تجاهى مسرعا ، وعلا صوت هريره وهو يحرك ذنبه ذات اليمين وذات اليسار ، ورفع يديه إلى صدرى ، وأسند رأسه بين ضلوعى وكأنه يحتضننى ويود تقبيلى ، ووسط كل تلك المشاعر المفرحة قرأت فى عينيه عتابا ، لكنه عتاب المحبين ، ورأيت حزنا دفينا ينبثق من نظراته .

ربتت برفق على رأسه وجسده ، وأشرت له أن يتوجه إلى موضع نومه فأسرع على الفور ، ودلفت إلى المنزل وألقيت السلام ، وكان الرد باهتا ، وسرت حتى استقر بى المقام فى غرفتى ، فأدركت أننى كنت مخطئا لعدم اقتنائى تلك الحيوانات منذ صباي ، وكان خطأى أكبر لتعففى منها وابتعادى عنها ، فقد أيقنت أن " ابن فلة " أوفى من الكثيرين من الأهل والأصدقاء .

الفريسة والصياد

تزوج " فتحى الأعرج " ـ فى الثلاثين من عمره ، يعمل كلافا لدى أحد أعيان القرية ، هذيل الجسد ، ناتئ عظام الوجه ، لا عائلة له ولا سند ، يعيش بالكاد ـ من " ثنية العايقة " ـ البالغة من العمر ثمانية عشر عاما ، عاشت فى كنف أحد أقربائها منذ صباها ، بعد وفاة أبويها فى عام واحد وتركاها وحيدة تسبح فى بحر الحياة ضد التيار ـ وعاشا معا يعوضان فقرهما بالمودة والكلمة الطيبة ، وكأن كل منهما قد خلق خصيصا للآخر ، وارتضيا بالمقسوم ، وحمدت " ثنية " ربها أن رزقها الله ذلك الرجل الطيب الذى يشبه حاله حالها ، ولم يسمعها يوما كلمة نابية أو يأتى بفعل ينغص عليها حياتها .

بعد مرور ثلاثة أعوام ، اختطفت يد المنون " فتحى الأعرج " دون أن ينجب ، ورحل فى هدوء لم يشعربه أحد كما كان حال حياته ، وودعته " ثنية " إلى مثواه الأخير ، واجترت ألاماها فى صمت ، وقبعت فى داره التى خلفها لها ، والمكونة من حجرة واحدة وحمام والمبنية بالطوب الأخضر والمعروشة بالبوص وأعواد الحطب وفلق من جذع نخلة والمفتقرة لكل المرافق .

بعد انتهاء عدتها ، خرجت " ثنية " تسعى على رزقها ، وقررت أن تعمل كما يعمل الرجال ، ولكن أحد المزارعين عرض

عليها أن يعطيها ما تريده من فجل وجرجير وخلافه لبيعه ، ولن يحصل على الثمن إلا بعد البيع ، فوافقت على الفور ، وأخذت تدور فى القرية والقرى المجاورة حاملة مقطفا كبيرا من سعف النخيل على رأسها تبيع تلك الخضروات ، بعد أن تكون قد أعدتها فى شكل حزم صغيرة ، وفى نهاية اليوم تسدد ثمن ما أخذته ، وتحتفظ بمكسبها لتقتات منه ، وتحصل على ما تحتاجه لإعداده للبيع فى صبيحة اليوم التالى ، ودبرت أمورها ووفرت قوتها من كد يمينها .

فى ليلة من الليالى ، جاءتها امرأة تعرض عليها الزواج من " عطية أبو عيسى " ـ ذلك الرجل الميسور الحال والذى يمتلك فدانين وبقرة وجاموسة تدران عليه الخير الوفير ـ وأخبرتها أنه سيريحها من حمل مقطفها والسير على أقدامها طوال النهار ، وسيسكنها بمفردها بعيدا عن زوجته وأولاده فى دار يمتلكها بالناحية البحرية ، وظلت تعدد محاسنه ، ولم تتركها إلا بعد أن أقنعتها وحصلت على موافقتها .

ذاقت " ثنية " حلاوة العيش فى دار " عطية أبو عيسى " ، وشعرت بأنوثتها وعرفت معنى الاستقرار والأمن والأمان من شر وغدر الزمان ، وبدت أثارالنعمة عليها بجلاء ،واستبدلت ملابسها البالية بثياب فاخرة أبرزت مفاتنها ، وزينت معصمها بزوج من الأساور الذهبية ، واعتادت ثنى طرف كم جلبابها كلما خرجت من بيتها لتظهر تلك الأساور ، محدثة (شخللة) مع كل حركة من ذراعها تلفت انتباه المارة ، وتزيدها زهوا وفخرا .

بعد مرور عامين انتقل " عطية أبو عيسى " إلى رحاب ربه أثر أزمة قلبية مفاجئة ، لم ينجبا خلالها طبقا لما اتفقا عليه ، وورثت عنه ستة قراريط ، ومبلغا من المال لا بأس به ، وبعض المصوغات الذهبية .

تولت " ثنية " زراعة الستة قراريط بكل أنواع الخضروات ، وتوافد عليها الباعة الجائلون وبعض أصحاب محلات الخضر ، وبدأت " ثنية " تجنى أرباح زراعتها وتضاعف من ثروتها ، وهى تمنى النفس بالمزيد والمزيد .

فى ليلة صافية ، ليلة النصف من شعبان ، وكان ضوء القمر يغمر الأرض فى سكون ، ويبدد ظلام الليل ويحيله إلى نهار ساطع ، طرق " حامد أبو العطا " ـ رجل فى الثمانين من عمره ، من ذوى الأملاك والنفوذ والسلطان ـ باب منزل " ثنية " وطلب منها أن تعيش معه كزوجة أمام الناس ، لا عن رغبة جسدية أو اشتهاء لصنف النساء ، بل لتقوم على خدمته ما بقى من عمره فى تلك الدنيا ، وذلك لخشيته الموت المفاجئ دون أن يشعر به أحد إلا بعد أن يصبح جيفة نتنة ، وسوف يمنحها فدانا وبيتا فخما ، وسوف ينقل ملكيتهما لها بمجرد موافقتها ، وسيضع مبلغ مائة ألف جنيه باسمها بأحد البنوك ، وسوف تقيم معه بقصره الذى يقطنه بمفرده بعد وفاة زوجته ، وهجرة أولاده وإقامتهم بأمريكا لإدارة أعماله وشركاته هناك ، أى أنها سوف تقبض مقابل خدمته مقدما ، وطلب منها أن تفكر فى عرضه ، وتخبره برأيها فى مدة أقصاها

يومان ، و..... لم تمهله " ثنية " وأخبرته أنها ليست فى حاجة للتفكير ، وأنها رهن إشارته .

فى خلال أيام ، نفذ " حامد أبو العطا " وعده الذى قطعه على نفسه ، وانتقلت " ثنية " للإقامة فى قصره ، وتركت دارها لأولاد " عطية أبو عيسى " .

بعد يوم واحد من وجود " ثنية " فى قصره ، اصطحبها " حامد أبو العطا " إلى أرقى محلات الملابس الجاهزة ، ومحلات الأحذية ذات الشهرة العالمية ، وانتقى ما يكفيها طوال عمرها ، ثم انتقل إلى أحد محلات المصاغة واشترى لها بعض المشغولات الذهبية ، ثم عادا إلى قصره ، والدهشة تكاد تطيح بعقلها بسبب ذلك البذخ ثمنا لملابس لن تجد الجرأة لارتدائها ، فسوف يمنعها حياؤها من الظهور بها حتى داخل القصر ، وأفصحت عما يجول بخاطرها ، فنهرها " حامد أبو العطا " قائلا :

- لازم تكونى برنسيسة ، وعاوزك تولعى فى الهلاهيل اللى إنت جايباها معا كى دى .

بدت " ثنية " كأميرة الأميرات ، حتى يخال لمن يراها أنها سليلة المجد والحسب ، وأنها تنحدر من أصلاب الباشوات سكان القصور ، وصدقت " ثنية " نفسها ، وهفت نفسها إلى سماع كلمات الإطراء ، واعتادت أن تطاع أوامرها من كل المحيطين أو المتعاملين معها دون نقاش ، وحذفت كل معارفها

القدامى من ذاكرتها بل وتجاهلتهم تماما ، ونظرت إليهم من عليائها نظرة دونية ، أما " حامد أبو العطا " فقد بدا أصغر من سنه بعشرين عاما على الأقل ، ودبت به مظاهر الحيوية والنشاط ، وارتسمت على وجهه دلالات الصحة والشباب .

فى يوم غابت فيه الشمس ، وغامت السماء ، وهاجت العواصف ، وثارت الأتربة ، التى أرمدت العيون ، وأزكمت الأنوف ، وضاقت منها النفوس ، اختفى " حامد أبو العطا " فى غرفة نومه ، وأغلق كل نوافذها ، وتدثر بالعديد من الدثر ، والتحف بعدة أغطية ، هربا من ذلك اليوم الموحش .

عند منتصف الليل أعدت " ثنية " كوبا من العصير وتوجهت به إليه ، وكشفت وجهه ، وأخذت تتفوه باسمه ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، وأحست ببرودة جسده وشحوب وجهه ، فرفعت ذراعه وتركته فهوى مسرعا ، ومررت يدها أمام عينيه فلم تتحرك مقلتيه ، إنها عاشت تلك اللحظات مرتين ، الأولى مع " فتحى الأعرج " ، والثانية مع " عطية أبو عيسى " ، وها هى المرة الثالثة ، إنها تعرفها جيدا ، لقد رحل " حامد أبو العطا " ، وانطلقت من صدرها صرخة هتكت سكون الليل ، وراودها هاتف يهمس فى أذنيها ويوحى لها بزوال أيام السعادة ، فالأيام الحلوة قلما تدوم طويلا .

انتشر الخبر ، وتجمع أهل القرية عن بكرة أبيهم ، وأسرع أحدهم وتفحصه وجس نبضه ، وأخبرهم أنه فارق الحياة ،

وجلس أبناء عمومته والمقربون يتشاورون فى الأمر ، ويعدون العدة استعدادا لمراسم الدفن وواجب العزاء الذى يليق بالوجيه الأمثل كبير عائلة أبو العطا ، والذى سيحضره كبار القوم والمسئولون فى كافة القطاعات بالمحافظة والمحافظات الأخرى .

حملت " ثنية " ماخف وزنه وغلا ثمنه ، وتركت القصر الى البيت الذى منحه إياها "حامد أبو العطا " وهى تدعو له بالرحمة والمغفرة .

اقترب " سمارة الغراب " ـ رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أنيق المظهر ، ممشوق القوام ، تبدو عليه دلالات الثراء ، لا يعرف له عمل ولا مصدر رزق ، حط بالقرية منذ فترة وجيزة وصار واحدا من أهلها ، كسب ود الجميع بحسن منطقه ـ ذات يوم من "ثنية " وأكد لها أنه سيرعى أرضها بجانب أرضه ، وسيكون طوع أمرها ورهن إشارتها ، والحارس الأمين لها ولممتلكاتها ، فزراعته لفدادينه الخمسة لن يثنيه عن رعاية أرضها ، وأنه لن يدعها بأى حال من الأحوال نهبا للطامعين والمستغلين من أصحاب الضمائر المريضة ، ووافقته " ثنية " دون تردد ، واعتبرته هدية ساقته السماء إليها .

ذات صباح جلس " سمارة الغراب " بجوار " ثنية " مترددا متلعثما ، يود التفوه بشئ ولكنه يعود إلى صمته ، فبادرته قائلة :

- إنت عاوز فلوس يا سمارة ؟

- لأ ياست الكل ، خير ربنا كتير .
- أمال فى أيه ؟ قول اللى إنت عاوزه .

ازدرد " سمارة " ريقه ، واستجمع شجاعته ، وأخبرها أن أولاد عم المرحوم " حامد أبو العطا " قد استولوا على معظم أراضيه من المزارعين كما استولوا على مخازنه وحظائر المواشى وكل ما يخصه ، وأخشى أن ينالوا منك ، ويستردوا الفدان والدار التى منحك إياها ، ولن تستطيعين مجابهتهم والوقوف أمام جبروتهم .

تلعثمت " ثنية " ولم تدر ماذا تفعل أو ماذا تقول ، وبعد برهة استفسرت منه عما يراه ، فأخبرها أنه يرى ضرورة بيع الأرض التى تمتلكها والمنزل والمشغولات الذهبية ، وكل ما تمتلكه وترك القرية نهائيا والنزوح إلى مكان ناء ، لتكون فى مأمن من هؤلاء الوحوش .

اقتنعت " ثنية " بما قاله ، وأخبرته أنها تمتلك فدانا وبيتا منحهما إياها المرحوم " حامد أبو العطا " ، وست قراريط ورثتها عن المرحوم " عطية أبو عيسى " ، وعليه البحث عن مشترى فى أسرع وقت ، وأنها ستتوجه فى الصباح لسحب أموالها المودعة بالبنك ، وصمتت قليلا ، وكمن تذكر شيئا أخبرته أنها تمتلك أيضا دارا صغيرة خلفها لها " فتحى الأعرج ".

أشار عليها بسرعة سحب أموالها ، وترك دار " فتحى الأعرج " فهى لا تساوى شيئا ، وأوصاها بحفظ أموالها ومصوغاتها فى مكان أمين ، وسوف ينهى بيع أرضها ومنزلها فى أسرع وقت .

فى غضون عدة أيام ، وجد " سمارة الغراب " مشترين للأرض الزراعية ، كما وجد مشتريا للمنزل ، وأعد العقود اللازمة ، وأسرع يخبرها بإنهاء مهمته ، وما عليها إلا أن تضع بصمتها وتقبض الثمن ، وقامت بدورها بمنحه حقيبة ثمينة تحوى أموالها ومصوغاتها الذهبية لحفظها بمعرفته .

اصطحب " سمارة الغراب " " ثنية العايقة " إلى أحد التجمعات السكنية الجديدة ، واستقر بأحد المكاتب العقارية ، وأخبرهم برغبته فى شراء فيلا فاخرة فى موقع متميز ، وأخذ وكيل المكتب يصول ويجول بهما حتى استقرا على بغيتهما ، وعادا إلى المكتب للتعاقد ، وقدرت الفيللا بمليونين ونصف المليون من الجنيهات ، وطلب منهم " سمارة " تحرير عقود الملكية باسم " ثنية العايقة " والاحتفاظ بها لحين حضورهما بعد عدة أيام لسداد ثمنها واستلامها .

كان إجمالى متحصلات بيع الأرض التى تمتلكها " ثنية " والمنزل والمصوغات الذهبية والأموال المودعة بالبنك تزيد قليلا عن المليون ونصف المليون من الجنيهات بحوزة " سمارة الغراب " ، وأخبرها أنه سيقوم ببيع فدانين من الخمسة التى يمتلكها لاستكمال ثمن الفيلا وفرشها بأحدث الفرش وتزويدها بأحدث الأجهزة

الكهربائية ، أما الباقى فسيتم شراء وتأسيس " سوبر ماركت " على أحدث صيحة باسميهما معا ، وفجأة وبدون مقدمات ، أمسك " سمارة " يدها ودقق النظر إلى عينيها وبادرها بقوله :

- تتجوزينى ياثنية ، عشان نكون شركاء فى كل شئ .

أومأت " ثنية " برأسها بالقبول وهى تخفى حياءها .

أخبر " سمارة الغراب " " ثنية " أنه قد باع الفدانين ، وسوف يتوجه فى الصباح لسداد ثمن الفيللا واستلامها ، وشراء ما يلزمها ، والعودة بعد عدة أيام لتسليمها عقد الملكية ومفتاح الفيللا ، وسيعقب ذلك تسليمها عقد زواجهما ومفتاح قلبه ، وطلب منها أن تقضى الأيام التى سيغيبها عنها فى دار " فتحى الأعرج " ، فهو لا يود تركها فى منزله قبل زواجهما حتى لا تلوكهما ألسنة الناس التى لا ترحم .

مر أسبوع ، تلاه أسبوع ، ولم يعد " سمارة الغراب " ، و " ثنية " تلتمس له العذر فالفيلا تحتاج الكثير ، ولا بد أنه يبذل الجهد المضنى فى سبيل الانتهاء من تأثيثها .

انقضى شهر على سفر " سمارة الغراب " ولم يعد لاصطحابها للاقامة بالفيلا التى اشترياها ، وبدأ الخوف يتسلل إلى قلبها ، خشية أن يكون أصابه مكروه ، فتوجهت إلى أحد أصدقائه تسأله عن منزله ، وتوصيه برعاية أرضه لحين عودته من سفره ،

وكانت الصدمة حينما أخبرها صديقه أنه لا يمتلك بيتا بالقرية ، ولا يملك شيئا من حطام تلك الدنيا الواسعة ، فهو مثل كتكوت اختطفته حدأة من وسط الأفراخ ، وألقت به فى قريتنا ، وتركته وحيدا غريبا

أيقنت " ثنية " أنها وقعت ضحية نصاب محترف ، وأن أموالها قد ذهبت أدراج الرياح ، فابتلعت ألامها وكتمت سرها ، وراحت تبحث عن المقطف حتى وجدته ، ولكنها لم تجد لديها ثوبا ترتديه .

أنا والمجذوب بمقهى أبو المطامير

راودتنى فكرة الإختلاء بنفسى بعيدا عن البشر ، وهى فكرة كثيرا ما تراودنى ، فأنا من عشاق الوحدة لمراجعة النفس ، بل ومحاسبتها حسابا عسيرا ، لتصحيح مسارها حال جنوحها عن الطريق القويم ، وحثها على الاستزادة حال استقامتها ، وأخذت الفكرة تلح علىَ بشدة بين الإقدام والإحجام ، وفى كل مرة كنت أستجيب سريعا ، ولكنى فى تلك المرة كنت فاقدا لحماسى دون معرفة الأسباب الحقيقية وراء ذلك الفتور الذى استولى علىَ .

بعد طول تفكير ، قررت الانصياع لأهواء نفسى ، رغم عدم شعورى بالسعادة التى كانت تغمرنى فى كل مرة أقرر فيها الذهاب إلى النوبارية لقضاء عدة أيام ، وأعدت زوجتى صينية من الأرز المعمر ودجاجتين وكمية من الخبز المعجون باللبن والسمن وعدة قطع من الجبن الفلاحى ، فهى عادة تجهز ما يكفينى وبعض العمال بمزرعتنا الصغيرة هناك لمدة يومين أو ثلاثة ، رغم وجود كل ما أحتاج إليه هناك ، إلا أنها اعتادت فعل ذلك كلما قررت السفر ، ولم يفتها أن تضع بعض الملابس التى أحتاج إليها مدة بقائى هناك ، أما أنا فقد أعددت أوراقى وبعض الكتب التى أحب أن ترافقنى حيثما كنت ، وحزمت حقائبى وغادرت منزلى .

ركبت من قريتى إلى مدينة طنطا ، وكعادتى أحب أن يكون لى فى كل مكان أتردد عليه أثناء سفرى مقهى أو كازينو أقضى به بعض الوقت أتأمل ملامح البشر وأرقب تصرفاتهم ، وأستمع فى صمت إلى أمالهم وألامهم ، فقضيت بعض الوقت بمقهى المحطة لارتشاف كوبا من الشاى وفنجالا من القهوة ، ثم نهضت لمواصلة رحلتى .

ركبت عربة من عربات النقل الداخلى إلى الموقف الكائن بـ " سوق الجملة " وتوجهت إلى العربة التى ستقلنى إلى " أبو المطامير " ، تلك العربات التى لم أر لها نظيرا فى أى موقف آخر ، فهى تذكرنى دائما بالدبابة رغم عدم علمى بالعامل المشترك بينهما ، وبعد قرابة نصف الساعة كان عدد الركاب قد اكتمل ، فأسرع السائق وألقى نظرة خاطفة يحصى عدد الركاب وأغلق أبوابها ، واستقر أمام عجلة القيادة ، وطلب منا جميعا قراءة الفاتحة ، وانطلق سريعا يمخر الطريق مخرا ، وكأنه يطارد رزقه فى محاولة للحاق به والقبض عليه ، وانتابنى شعور بالخوف وأحسست بدنو أجلى ، وخيل إلىَ أننا فى طريقنا للآخرة منذ طلب منا السائق فى خشوع وأدب جم قراءة الفاتحة ، ولا أدر سر هذا الشعور .

بعد قرابة الساعتين ، وصلت العربة موقف " أبو المطامير " وأسرع السائق بفتح أبواب العربة ، وبنفس الخشوع والأدب الجم ، سمعته يقول :

- حمد لله على السلامة ياافنديه .

أيقنت أننى لازلت على قيد الحياة ، ولم أغادرها إلى الآخرة ، وأن خوفى لم يكن فى محله ولا يوجد ما يبرره ، فحملت حقائبى ، وخطوت عدة خطوات لأستقر بمقهى " أولاد البلد " المواجه للموقف مباشرة لأقضى به استراحة قصيرة أستقل بعدها عربة إلى مدخل قرية " عبدالرقيب " ، ثم عربة ربع نقل من هناك إلى المزرعة .

أسرع النادل عندما رآنى وحمل حقائبى نيابة عنى ، وأخلى لى الطاولة التى أفضل الجلوس إليها كلما ترددت على ذلك المقهى ، وتوجه إلى الكافيتريا الملتصقة بالمقهى ، وأحضر ساندوتشا من الطعمية فى صينية صغيرة وبجواره بعض المخللات وكوبا من الماء المثلج ، وضعها أمامى وانصرف لتلبية طلبات باقى الرواد.

دخل رجل طويل القامة ، يرتدى جلبابا لونه قريب من الزى الكاكى الذى كان يرتديه رجال القوات المسلحة منذ سنوات لكنه متهرئ وتعلوه الأوساخ ، وشعر رأسه متجعد ومنفوش فى غير نظام وكأنه جلد قنفذ ، وذقنه رثة لم تهذب منذ نبتت ، ويلف على رأسه قطعة من القماش الأخضر ، ويعلق فى كتفه قطعة خشبية بحامل جلدى تشبه بندقية ، وتسيل ريالته من فمه لتغطى ذقنه وتبلل لحيته ، عرفته على الفور ، إنه أحد أولياء الله الزهاد الجوالون ، أو كما يطلق العامة عليه لفظ " مجذوب " .

ترك ذلك المجذوب كل رواد المقهى واتجه صوبى ، ومد يده معتقلا الساندوتش الذى أمامى وهو يضحك ضحكة بلهاء لا تنم عن

شئ ولا أعرف لها معنى ، وافترش الأرض ، ودخل فى معركة غير متكافئة مع ذلك الساندوتش اليتيم الذى اختفى داخل فمه فى قضمة واحدة حتى خيل إلىَ أنه يصرخ ويستغيث .

أتى النادل يحمل كوبا من الشاى كما عودته ، وسيأتى بعده بفنجال من القهوة دون أن أطلب ، فقد صرت زبونا معروفا لكثرة ترددى ولكونى دائما ما أجذل له العطاء ، ولمح المجذوب والساندوتش ينزلق داخل حلقه ، فنهره بشدة وهم بإزاحته خارج المقهى ولكنه تشبث بالأرض وأبى أن يتنحح ، فطلبت منه أن يتركه لحاله ، وأن يحضر له كوبا من الشاى ، فأخبرنى أنه لا يشرب الشاى ، وهم بالانصراف مشيرا أنه سوف يحضر لى ساندوتشا بديلا ولكنى أخبرته بعدم رغبتى فى الطعام وإحساسى بأن معدتى قد امتلأت ولا تتسع لأية أطعمة فى الوقت الحالى .

أخرجت ورقة مالية فئة الخمسة جنيهات ومددت يدى بها تجاه المجذوب ولكنه دفع يدى بعيدا عنه ولم يتناولها ، فوضعتها على الطاولة أمامى وأنا أختلس إليه النظرات ، والحقيقة أن هيئته تعافها النفس وتتقزز منها ، فاستدرت قليلا بمقعدى حتى تقع نظراتى بعيدا عن مرماه ، ولكنى فوجئت بهذا المجذوب ينهض واقفا ويحتضننى ويقبلنى مبللا وجهى بريالته المنسابة طوال الوقت ، ثم فك أسرى وأطلق يديه التى تطوقنى قائلا :

- أنا عارفك ، إنت السيد البدوى ، إرجع تانى ومتسيبش الدرك بتاعك .

لم أفهم ما يعنيه ذلك المجذوب ، ولم أشغل بالى بما قاله ، وفجأة مد يده وقبض على الورقة المالية فئة الخمسة جنيهات التى وضعتها أمامى على الطاولة وتوجه بها إلى رجل وسيم تبدو عليه دلائل النعمة ، ويرتدى بذلة أنيقة ، ويضع على عينيه نظارة بنية اللون يتلمس خطواته على أعتاب المقهى ، ومد يده بها اليه فالتقمها الرجل مسرعا ودسها فى جيبه ، واستدار مغادرا المكان فى خفة وكأنه يود ألا يراه أحد ، أو كأنه أتى خصيصا ليلتقطها وينصرف .

توجهت إلى مصلى صغير يقع فى أحد أركان الموقف لأداء فريضة الظهر ، وعندما بدأت فى الوضوء ، وجدت المجذوب منتصبا بجوارى وقد تعلقت عيناه بالسقف وهو يشير بسبابته اليمنى للسماء ويشد جسده لأعلى فيبدو طويلا ثم يرخيه ثم يعود فيشده ثم يرخيه مرددا :

- إرجع تانى ياسيدى ، وما تسيبش الدرك بتاعك .

لم ألتفت لقوله ولم أدر ماذا يعنى ، وعندما انتهيت من الوضوء ، تركته واقفا وذهبت للصلاة ، وما أن نويت حتى وجدته يقف بجوارى ، ويشير بسبابته نفس الإشارة وهو يطول ويقصر ، مرددا نفس عباراته . تركت مكانى وانتقلت بعيدا إلى أحد الأركان ، وما أن رفعت يدىَ للنية والدخول فى الصلاة حتى وجدت المجذوب بجوارى يكرر حركاته ويردد عباراته .

استوقفتنى عباراته هذه المرة وقررت الالتزام بها ، وعقدت العزم على العودة من حيث أتيت دون تفكير ، وبمجرد أن فرغت من صلاتى توجهت إلى المقهى وحملت حقائبى دون الالتفات إلى النادل الذى كان يحمل فنجالا من القهوة قاصدا إياى ، ووجدت نفسى أجلس بالمقعد الأمامى بالعربة المتجهة إلى طنطا .

فى ظهيرة اليوم التالى حدثنى " مبروك " ــ أحد عمال المزرعة ــ هاتفيا ، وأبلغنى أن بعض قطاع الطرق وأولاد الليل قد اقتحموا غرف المواتير الخاصة بالمزرعة المواجهة لمزرعتنا ، وقاموا بفك البعض منها ، وعندما سمع المتواجدون صليل دفع المواتير بعضها فوق بعض ، وأسرعوا إلى هناك ، انهال عليهم قطاع الطرق بوابل من الأعيرة النارية ، وقتلوا " مظلوم أبو الحظ " وأصابوا اثنين أحدهما إصابته خطيرة ، وفروا بعرباتهم وقد استولوا على موتورين .

وضعت سماعة التليفون ، وشردت بذهنى استرجع أحداث الأمس ، منذ لحظة خروجى من منزلى وحتى دخول المجذوب المقهى ، وتتبعه لى بالمصلى ، وتردد صدى كلماته تقرع أذانى ، فلو واصلت مسيرتى كان من المقرر قضاء ليلتى مع عمال المزرعة لمراقبة كميات الأسمدة التى ستوضع بالسمادة أثناء الرى ، وربما صار القتلى اثنين ، أو فى أحسن الأحوال كان الاثنان المصابان سيصيرون ثلاثة .

عدالة السماء

" على الأعور " ــ تعدى الثلاثين من عمره بقليل ، فياش (معتاد التباهى بما ليس عنده) ، محدود الدخل ، يعيش لنفسه فقط ، يحاول الحصول على كل شئ دون أن يعطى شيئا ــ كنى بالأعور منذ عدة سنوات حينما اعترك مع شاب يصغره بعشر سنوات ، وقام ذلك الشاب بفقئ عينه اليمنى ، وتركه بعين واحدة ، ومنذ ذلك اليوم وهو يعمل جاهدا أن يبدو قويا وسط أقرانه ، ويعوض فقد عينه بنشر رذائله بوقاحة على من يعرف بفراسته أن بمقدوره التمكن منه والظهور عليه .

تنافس " على الأعور " و " عبده الطيب " ــ ذلك الشاب الذى يحمل الكثير من اسمه ، وينحدر من أسرة عريقة ميسورة الحال ، يتسم بالحياء كالبنت البكر ــ فى كسب ود " رضوى " ــ تلك الفتاة الناهدة التى يبتغيها كل من يرغب فى إتمام نصف دينه ، وبمعيار العقل اختارت " رضوى " " عبده الطيب " واقترنت به ، وأمضيا عدة شهور ينعمان معا بعش الزوجية ، ويغترفان من نهر الغرام .

صحا أهل " نجع الغلابة " على صراخ أحد المزارعين ، وتصريحه بأنه وجد " عبده الطيب " ملقيا على شط المصرف البحرى وسط بركة من الدماء مصابا بطلق نارى ، وذاع الخبر وانتشر فى القرى المجاورة كما تنتشر النار فى الهشيم ، وأسرع الأهالى إلى هناك ، ووقفوا متحلقين وكأنهم يلقون عليه النظرة

الأخيرة ، ويدلى كل منهم بدلوه همسا ، وسارع عمدة " النجع " بإبلاغ مأمور المركز بالحادث الأليم ، وعلى الفور حضر رجال الشرطة ووكيل النائب العام ، وقاموا بإجراء المعاينة اللازمة ، وبعد تقنين الإجراءات ، تم التصريح بدفن الجثة ، وودعوه إلى مثواه الأخير وسط مظاهر الحزن والأسى ، وهم يمصمصون الشفاه ، مستنكرين تلك القتلة الشنعاء التى لم يكن يستحقها ، وتلقت " رضوى " الصدمة فى صمت ، وهى لا تصدق ما حدث ، وكأنها فى كابوس مفزع ، وأغلقت دارها تتجرع ألامها .

ألقى رجال الشرطة القبض على العديد من أهل النجع ممن حامت حولهم الشبهات وأشارت أصابع الاتهام تورطهم فى مقتله ، وتوالى القبض على آخرين ممن وردت أسماءهم فى التحقيقات ، وبعد عدة أيام تم الافراج عنهم تباعا لعدم ثبوت الأدلة ، وأخيرا قيدت ضد مجهول .

مضى عام على مقتل " عبده الطيب " ونسى الناس أو تناسوا تلك الواقعة المؤلمة ، ولم يعد أحد يتحدث عنها من قريب أو بعيد ، كغيرها من نوائب الدهر التى تبدأ كبيرة ومفجعة ثم تتلاشى شيئا فشيئا حتى تضمحل وتستقر فى غياهب النسيان ، وبدأ " على الأعور " يهمس فى أذان بعض قرناء السوء أنه هو من خطط ودبر ونفذ مقتل " عبده الطيب " دون أن يترك خلفه ما يدينه ، واستطاع الإفلات من العقاب ، وها هو يلهو حرا طليقا كما يحلو له

فى ليلة من الليالى ، رقد على الأعور طريح الفراش تصطك أسنانه ، متكورا لاصقا ركبتيه بذقنه ، ينتفض ويرتعد ، وارتفعت درجة حرارته بصورة ملحوظة ، وتصبب جسده عرقا ، وأخذ يهذى بكلمات غير مفهومة ، ولم تفلح الأقراص التى ابتلعها

، ولا كمادات الثلج التى وضعتها أمه فوق رأسه وعلى ساقيه من خفض درجة حرارته ، بينما اكتفى أبوه بالدعاء له بكشف الغمة وزوال الحمى .

أسرع " مندور " ـ والد ـ " على الأعور " وامرأته إلى الشارع أثر سماعهم صخب وضوضاء يتتبعون السيقان التى تدب فى الأرض متسارعة الخطى ، تاركين ابنهم فى وعكته ، ومن خلفهم الكثير من الرجال والنسوة والصبية يستوضحون الأمر ، وأخيرا علموا أن " عطية الهنداوى " قد قتل بطلق نارى فى إحدى ضواحى النجع وسط الزراعات المترامية الأطراف .

وقف " مندور " يحوقل ويسترجع فى حزن بالغ ، وتذكر ابنه الذى يرقد بين الحياة والموت ، فاصطحب امرأته وعاد مسرعا ، وتبعه البعض بينما ظل آخرون يرقبون ما يحدث عن كثب ، داعين الله أن يقتص من القاتل اللعين .

عندما أتى رجال الشرطة ، أسرع أربعة رجال طواعية للإدلاء بشهادتهم ، وذكروا أنهم كانوا يجلسون لإعداد الشاى على أعواد الحطب بجوار ماكينة الرى ، تاركين المياه تتدفق لرى أراضيهم ، وفجأة سمعوا طلقا ناريا ، وسمعوا صوتا يتأوه ويستغيث ، فأسرعوا إلى مصدر الصوت ، وعرفوه على الفور من نبرات صوته ، وسمعوه يتوجع ويصيح بصوت ضعيف متقطع النبرات قائلا :

- ياقتيل " على الأعور " ، ياقتيل " على الأعور

ولمحوا شخصا يجرى مسرعا محاولا الهرب تحت جنح الظلام ، لم يتبينوه فى أول الأمر ، ولكنه عندما أصبح إزاء

النيران التى أشعلوها ، رأوه وعرفوه يقين المعرفة بما لا يدع مجالا للشك ، إنه "على الأعور " .

تم اصطحاب الشهود الأربعة ، كما تم إلقاء القبض على آخرين كانوا متواجدين لرى حقولهم المتاخمة لموقع الحادث ، وعند عرضهم فى الصباح على النيابة أكدوا جميعا أنهم رأوا " على الأعور " يجرى مسرعا وهو يخفى سلاحه داخل ملابسه ، وأنه عندما شعر بوجودهم انحرف يمينا وتسلل إلى زراعات القصب واختفى بداخلها .

تم القبض على " على الأعور " ومواجهته بالشهود الذين أكدوا جميعا أنه القاتل ، وأكد أربعة منهم أنهم سمعوا القتيل يتأوه ويصرخ معلنا أنه قتيل " على الأعور " .

حاول " على الأعور " فى البداية الإنكار بشدة ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام أقوال الشهود الدامغة المتطابقة ، بالإضافة إلى أقوال القتيل قبل أن تصعد روحه لبارئها ، ولم يستطع اثبات مكان تواجده ساعة واقعة القتل ، فالتزم الصمت ، واستسلم لقدره .

تداولت القضية ، وبعد عدة جلسات حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وها هو الآن يقبع خلف القضبان جراء ما اقترفت يداه .

وفاء سماح

عاشت " هاجر " ـ فى العقد الرابع من عمرها ، ربة منزل ، على قدر وافر من جمال الروح والجسد ، مرحة ، كريمة الطباع ـ مع زوجها " عبد المقصود " ـ ذو الخمسين عاما ، العامل بمصنع للغزل والنسيج القريب من قريته ، يذهب إليه ويعود يوميا بدراجته العتيقة ، يشبه زوجته فى الكثير من الصفات والطباع حتى ظن الكثيرون أنها شقيقته ـ فى وئام وسلام ودفئ وحنان ، يرعى أرضه وبهائمه بعد عودته من عمله ، يعتمد على زوجته اعتمادا كبيرا فى تسيير أموره سواء فى الأرض أو المنزل ولا سيما بعد زواج ابنتيهما .

فى يوم من الأيام توعكت " هاجر " ورقدت طريحة الفراش ، ولم تقو على القيام بأعبائها المنزلية ، وعندما عاد " عبدالمقصود " من عمله عصرا اصطحبها إلى أحد الأطباء ، وبعد فحصها أخبرها أنها حامل فى شهرها الثالث .

بعد مرور ستة أشهر هاجمتها أوجاع المخاض ، وعند بزوغ الفجر وضعت بنتا أسمتها " سماح " ، وفى نفس التوقيت بالضبط ولدت جاموستها أنثى واعتبرت " هاجر " ذلك فألا حسنا ، وأسمتها " سماح " نفس اسم ابنتها ، ولكى تميز بينهن فقد

أطلقت على ابنتها " سماح الابنة " وعلى "سماح "ابنة جاموستها " سماح الحبيبة " ، وشملتهن الاثنتين باهتمامها ورعايتها .

مرت خمسة أعوام ، وهاجر ترعى ابنتها " سماح "، وتولى " سماح "الحبيبة رعاية أكثر ، وتشرف بنفسها على مأكلها ومشربها ، تقدم لها البرسيم شتاء والدريس والتبن والعلف صيفا ، وتعنى بنظافة مربضها وتنحية الروث يوميا ، واستبدال ما تبلل من تراب بآخر جاف ، وحلابتها صباحا ومساء ، كل ذلك برفق وحنان ، حتى توطدت أواصر الصداقة بينهن .

مرضت " هاجر " مرضا مفاجئا ألزمها الفراش ، وترددت على العديد من الأطباء ، وكل منهم يشخص الداء ويصف الدواء دون جدوى ، وبدأت حالتها الصحية تتفاقم يوما بعد يوم ، فتم إيداعها إحدى المصحات الطبية ، وإجراء عدة عمليات جراحية واستئصال أجزاء من أحشائها ، ولم تتحسن حالتها ، ولم تسترد عافيتها ، وأضحت طريحة الفراش ، لا تقو على خدمة نفسها .

فى خلال تلك الفترة طلب " عبدالمقصود " من إحدى قريباته أن تقوم بحلب " سماح " ولكنها رفضت أن تنصاع لأيدى تلك المرأة ، وثارت وهاجت وأخذت تضرب بقوائمها فى الأرض ، وتموج برأسها يمينا ويسارا للإطاحة بمن يقف فى طريقها .

احتال " عبدالمقصود " على " سماح " الحبيبة ، وألبس تلك المرأة جلبابا من جلابيب امرأته " هاجر " فسكنت الجاموسة

واستكانت ، ولكن بمجرد أن امتدت أيدى تلك المرأة إلى ضرعها لحلبها هاجت وماجت ووجهت إليها ضربة رأس قوية أطاحت بها ، فأسرعت المرأة بالفرار من أمامها حفاظا على حياتها ، فلم يجد " عبدالمقصود " سوى الاستعانة بعكاز وأوسعها ضربا حتى تمكنا من حلبها ، ومنذ ذلك اليوم يستخدم " عبدالمقصود " عكازه لتتمكن قريبته من حلبها ، وقد تقلصت كمية اللبن التى تدرها إلى النصف تقريبا .

اشتد المرض بـ " هاجر " ، وامتنعت عن الطعام والشراب ، وضمر جسدها وأصبحت كخرقة بالية مكومة على سريرها ، لا تدر بما يدور حولها ، حتى المحلول الذى كان يربطها بالحياة ويؤجل رحيلها ، رفض أن ينساب فى عروقها وتوقف ، ومع توقفه توقفت دقات قلب " هاجر " ، وفارقت الحياة بعد صراع مع المرض الخبيث .

بعد انتهاء عملية الغسل ، وعند حمل الجثة إلى مسجد القرية للصلاة عليها ، أخذت " سماح الحبيبة " فى إصدار أصوات غريبة لا تشبه خوار البقر ولا التى تصدر عن بنى جنسها ، إنها أقرب إلى نواح البشر ، ولم تتوقف عن إصدار ذلك الصوت الغريب ، وحاولت أن تتخلص من أغلالها ، وأن تمزق قيودها ، وكأنها تود أن تتبعها إلى مسجد القرية ، أو إلى مثواها الأخير .

دخل أحد الجيران ليضع حزمة من البرسيم وطستا من الماء أمامها ، فوجد برسيما أمامها ولكنها لا تقربه ، ووجد دموعها

تترقرق فى مآقيها ، وتنظر إليه نظرات مليئة بالحزن والأسى ، وكأن حبيبا قد فقد حبيبه ، وكأنها تود أن تقول له ماتت من كانت تحنو علىَ وترفق بى وتسهر على راحتى ، فلم يستطع البقاء أمامها ، وغادر المكان فى ذهول.

بعد الانتهاء من الدفن ، جلس " عبدالمقصود " وبعض الأقارب وزملاء العمل حول الطبلية يتناولون الغذاء ، حيث أطعمة الوضيمة التى توالت على منزله من الأقارب والجيران ، وبعد أن فرغ توجه إلى مربض " سماح الحبيبة " ليجد ما أمامها من برسيم منذ الصباح كما هو ، وبمجرد رؤيته راحت عيناها تذرف الدمع وهى تسلط نظراتها عليه ، فلم يقو على مجابهة نظراتها ، وانتقلت إليه مشاعر الحزن والأسى ، ودخل فى نوبة بكاء هيستيرية ، حتى سمع أناته من بالمنزل ، فأسرعوا إليه يهدئون من روعه ويطيبون خاطره .

مضى ثلاثة أيام على رحيل " هاجر " وصوانى الطعـــــام لازالت تنهال على بيت " عبدالمقصود " ، وسارت الحياة اليومية بصورة طبيعية ، ولم يستجد عليها سوى إضراب " سماح الحبيبة " عن الطعام حتى نحلت ، وارتسمت مظاهر الحزن بجلاء على قسمات وجهها ، ولم يسمع صوتها وكأنها أصبحت خرساء .

أشار رجل من ذوى الخبرة على " عبدالمقصود " ألا يترك " سماح " الحبيبة فى مربضها بالمنزل ، وأوصاه باصطحابها إلى الحقل وتركها هناك طوال اليوم ، ولكن تلك الحيلة لم تنجح ،

وواصلت إضرابها عن الطعام ، وعند الغروب اقتادها عائدا إلى منزله ، وبمجرد وصولها إلى منزله ، رفضت الدخول وأعلنت العصيان ، وأخذت تصدر الأصوات التى سبق وأصدرتها يوم وفاة " هاجر " والشبيهة بالنواح .

أمسك " عبدالمقصود " عكازه وانهال عليها ضربا كى يدخلها إلى مربضها ، ولكنها أصرت على عدم الدخول ، فانضم إليه جاره وناوبه ضربها ، فطاشت وأطلقت ساقيها للريح فأسرعوا خلفها ، وظلوا يلاحقونها حتى استقرت بمربضها بالحقل وبركت والتزمت الصمت ، والتف العديد من أهل القرية فى محاولة لإيقافها والعودة بها إلى المنزل ، ولكن محاولاتهم بـــاءت بالفشل ، فتحلقوا حولها ينظرون إليها وهم فى حيرة من أمرها ، فطلب منهم " عبدالمقصود " أن يتركوها لحالها ، وأسرع إلى " الراعى " الجزار وطلب منه ذبحها فى مكانها وتوزيعها على أهل القرية صدقة على روح زوجته ، وأوصاه ألا يرسل له شيئا منها ، وجلس القرفصاء فى مربضها بمنزله يحدث نفسه : ليت البشر يعلمون ويضعون فى حسبانهم أن الحيوانات قادرة على الشعور بالسعادة والشقاء ، واللذة والألم ، مثلها مثل البشر تماما ، وربما فاقت العديد منهم من متبلدى الإحساس فاقدى المشاعر .

وتراءت زوجته أمام ناظريه ، وتردد صوتها فى أذنيه ، فانهمر فى بكاء مرير .

تنويه ثان

عشر حكايات من النوبارية

يمتلك شقيقى مزرعة صغيرة فى النوبارية ، وهى الآن تزهو وتذخر بأشجار الفاكهة المثمرة ، ومنذ زيارتى لها للمرة الأولى منذ عقدين من الزمان وأنا أجد فيها الراحة النفسية وهدوء الأعصاب وراحة البال لكونى أبحث عن الهدوء ، وأميل إلى اجتناب البشر لأيام بين الحين والحين ، حتى أخلو إلى نفسى فأحاسبها وأقوم سلوكها ، وأشرد بخيالى أتأمل الكون من حولى بما يحويه من بشر وطير وحيوان ونبات وحتى الجماد .

والحقيقة أننى أشتم هناك هواء نقيا قبل أن تمتد إليه يد البشر فتفسده وتلوثه ، وأشعر بانفتاح شهيتى وإقبالى على الطعام ، كما أننى ألحظ اتساع الكون ، ووضوح مفرداته ، وبساطة العيش ، ووفرة الرزق .

لتلك الأسباب فإننى كلما ضاق صدرى أو عندما تخامرنى فكرة أدبية ، تقترب منى ثم تهرب مبتعدة عنى ، فإننى أحزم حقائبى وألملم أوراقى ، وأسرع إلى هناك فورا لقضاء عدة أيام ، أعود بعدها صافى الذهن منشرح الصدر

فى تلك الأيام القليلة تصادقنى بعض الوقائع بحلوها ومرها ، وتشدنى بعض التصرفات سواء من سادات القوم أو أرازلهم ، فقررت أن أنقل وقائع تلك الأيام ، وتصرفات بعض الأشخاص ، وأحكى عشر حكايات من زياراتى المتكررة ، وإن شاءالله لو كان هناك فى العمر بقية ، وقدر لى أن أصدر مجموعة قصصية أخرى بعد تلك المجموعة ، فسوف أحكى وقائع أيام أخر .

الحكاية الأولى

لدغة مؤمن

اصطحبت " مؤمن " ـ أحد أقربائى ، مهندس مدنى يصغرنى بأربعة أعوام ـ إلى النوبارية ، فهو من عشاق التردد عليها ، ويلومنى ويعتب علىَ إذا ذهبت إلى هناك بدونه ، وكنا فى فصل الصيف ، فى يوم شديد القيظ ، وحرارة الشمس تلفح الوجوه ، وذهبنا إلى المزرعة للإشراف على الكومباين الذى يحصد محصول القمح ، وهو باكورة إنتاج المزرعة ، تلك الأرض البكر التى لم تفلحها يد زارع من قبل والمتعطشة للإخصاب .

اندفع الكومباين كالغول يحصد أعواد القمح ويذروها فى نفس الوقت ، ويحتفظ بحبات الذهب الأصفر فى باطنه ، ويكبس أعواد القمح بالات خلفه فى صفوف منتظمة ، وانتشر عمال المياومة كل يقوم بدوره المرسوم له ، فهذا يقود جرار زراعى يجر مقطورة ، ويقف بجوار الكومباين كلما أشار له سائقه ليفرغ ما فى بطنه من محصول ، وأخرون يرصون بالات قش القمح تمهيدا لنقلها إلى مخزن خاص ، لدرسها عند الحاجة واتخاذها علفا للماشية ، وجلسنا نرقب العمل ، ونبدى ملاحظاتنا إذا استدعى الأمر .

نهض " مؤمن " مسرعا من تلقاء نفسه يعاون العمال فى رص بالات القش ، وما هى إلا دقائق معدودة ، حتى وجدته يصرخ

ويتأوه بطريقة هيستيرية ، وأمسك ذراعه الأيمن بيسراه ، فأسرعت إليه فأخبرنى أن شيئا قصيرا قد لدغه ، وأنه لا يقوى على تحريك ذراعه ، ولا يحتمل الألم الذى أصابه .

شل تفكيرى للحظات ، ووقفت مذهولا لا أدر ماذا أفعل ، فأشار علىَ أحد العمال بالإسراع فورا إلى المصحة التى تبعد عنا مسيرة نصف ساعة بالسيارة ، وهمس فى أذنى وهو يمصمص شفتيه ويتحسر :

- ربنا يستر ، ومتكونش اللى قرصته دى طريشة .
- الطريشة دى خطر أوى يعنى .
- هو مش بيقول حاجة قصيرة ، دى مبيسلمش حد منها أبدا .

لم أرد عليه ، وأسرعت إلى الطريق على بعد أمتار ، وتسمرت فى عرضه ، واستوقفت أول عربة صادفتنى كرها ، وانطلقنا إلى المصحة ، وهناك أحضر الطبيب أمبولين صغيرين ومزجهما وحقنه على الفور ، كما أحضر محلولا وأوصله بعروقه ، وطلب منا البقاء لمدة ساعتين تحت الملاحظة ، وتركنا وانصرف للإطمئنان على بعض الحالات المرضية .

جلست على سرير مجاور فى صمت ، وبين الحين والحين أرمقه بنظرة ثاقبة دون أن أحدثه لمعرفة عما إذا كان حيا أم لا ، وظللت أرقب حدقة عينيه ، وشرد ذهنى بعيدا ، ورحت أضع السيناريوهات لكل الأمور المتوقعة ، وظللت على تلك الحال حتى سمعت صوت " مؤمن " يطمئننى على صحته .

حضر الطبيب المعالج وفحصه جيدا وقرر خروجنا ، فانصرفنا إلى المنزل ولكنى فوجئت بأنه لا يستطيع أن يحرك ذراعه

، وأنه يكز على أسنانه فى محاولة منه لتحمل الألم الذى لم تخمد حدته .

أمضيت ليلة ليلاء ، لم يغمض لى جفن ، وهو راقد يتألم ويعوى ، والوقت يمر بطيئا متثاقلا ، وظللت على حالى حتى بزغ الفجر ، فتوضأت وصليت ، ودعوت الله أن يزيل عنه تلك الكربة ، وأن نعود معا لبلدتنا سالمين .

دبت الحياة وكثرت الحركة، فالعمل هناك يبدأ فى الصباح الباكر ، فخرجت إلى الشارع ، ولمحت الشيخ " مساعد "ـ مقاول أنفار من أهل تلك المنطقة ويعرف كل دروبها ـ يسير بعربته ، أشرت له فأسرع إلىَ وقصصت عليه كل ما حدث ، فاندفع إلى الداخل ، وتفحص " مؤمن "، وطلب منى أن أحضره للعربة للذهاب إلى الشيخ " عبدالغنى "بقرية "سيدى محمد " .

ركبنا العربة ، وانطلق " مساعد " يطوى الطريق طيا ، حتى وصلنا قرية صغيرة بسيطة ، وتوقف أمام أحد البيوت ، وطرق الباب ودلفنا إلى الداخل .

استقبلنا رجل فى العقد السابع من عمره ، سمين ينتفخ كرشه أمامه ، طمس الزمن معالم وجهه ، ولكن الطيبة بادية عليه ، فأسرعت وقصصت عليه كل ما حدث ، وأخبرته أن تلك اللدغة منذ منتصف نهار الأمس ، وأيقن الرجل لهفتى وخوفى ، فأخبرنى أن الأمر يسير ، ولا أساس لما يدور فى رأسى فهدأ روعى .

أحضر الرجل طبقا صغيرا وشفرة حلاقة ، وشق شقا صغيرا بأنامل أصبعين من اليد اليمنى الملدوغة ، وتناوب مص الإصبعين واحدا تلو الآخر ويفرغ ما مصه من دماء حمراء قانية فى

الطبق دون أن ينطق ، إلى أن أشار لى بيده وأفرغ ما فى فمه ، ولكن فى تلك المرة أفرغ دائرة من سائل أصفر ، وبلهجة المنتصر الواثق من قدراته ، ابتسم وقال :

- دى عجربة ، لكن وعرة جوى .

هلل " مؤمن " وانتصب واقفا وهو يحرك ذراعه الذى كان قد توقف عن الحركة نهائيا ، وأخذ يطقطق أصابعه محدثا فرقعة ، وهو يصيح :

- أهه ، مفيش حاجة خالص أهه .

حمدت الله على أن ما حدث كان مجرد حمة عقرب ، ولم تكن لدغة تلك الطريشة الملعونة ، وهممنا بالانصراف ، لكن الشيخ " عبدالغنى " أصر أن نتناول الفطور معه ورضخنا لطلبه تحت وطأة إصراره ، وما إن فرغنا أخرجت مبلغا من المال ، ومددت يدى تجاهه ، ولكنه رفض بشدة ، فقد فهم من لهجتنا أننا غرباء ، ولسنا من أهل المحافظة ، وتعلل أننا ضيوفه ، ولنا حق الضيافة .

انصرفنا ، وأنا أتمتم :

- أهل النوبارية أدرى بشعابها وهوامها .

الحكاية الثانية

النفس العفيفة

بعد عمل يوم مضنى أمضاه " لماح " ـ مشرف العمال بالمزرعة والشهير بالفراسة ـ وبعض العمال فى عزق الأرض وتنقية الحشائش ، ولا يدرى أحد لما سمى بالفراسة ذلك الاسم الذى التصق به لدرجة أن الكثيرين لا يعرفون له اسما سواه .

بعد انصراف العمال سار " الفراسة " يتفقد ما تم من أعمال ، ويرتب الأعمال المطلوب إنجازها صباح الغد ، ثم أخذ وجهته للعودة إلى المنزل .

أمسك " لماح الفراسة " بمقود دراجته التى لاغنى له عنها ، فهو يحمل عليها ما لا يقدر على حمله من أطعمه و " جركن " ماء وأدوات الزراعة البسيطة كالفأس والمنجل وخلافه ، وسار يجر رجليه وكأنها معقودة بأكياس من الرمال ، وما كاد يغادر المزرعة ، ويستلم طريق الأسفلت بمحاذاة المسقاة ، حتى لمح حملا بداخلها فى عراك مع الأمواج من أجل البقاء ، تلك المسقاة المتسعة من فوهتها والضيقة كلما اتجهت إلى القاع ، والمبطنة بطبقة من

الأسمنت ، وكلما حاول الخروج انزلقت رجليه فيسقط فى الماء مرة أخرى .

أدرك " الفراسة " أن هذا الحمل مآله إلى الهلاك لا محالة ، فأسرع بخلع جلبابه وقفز وسط الترعة ، وحمله على كتفيه ، وظل يحاول حتى استطاع الخروج به ، ووقف للحظة تراوده نفسه الأمارة بالسوء أن يحتفظ به لنفسه فهو لقطة لا يعرف له صاحبا ، ولكن سرعان ما استيقظ ضميره وقرر أن يقيده بفناء المنزل حتى الصباح ، ثم يبدأ رحلة البحث عن صاحبه ، ومن المؤكد أن صاحبه سيتفانى فى البحث عنه .

وضع " الفراسة " الحمل فى السلة المثبتة خلف الدراجة وأمسكه بيسراه وسار مسرعا ، ولمح قطيعا من الأغنام على بعد يسير ، فتوقع أن هذا الحمل يتبع هذا القطيع وسقط خلسة فى المسقاة دون أن ينتبه الراعى ، فأسرع حتى لحق به وأخبره بأمر الحمل ، وتركه وركب دراجته وهم بالانصراف ، ولكن الراعى استوقفه مبديا دهشته لأمانته ، فقد كان من الممكن الاستيلاء عليه دون أن يدرى أحد ، فأخبره أنه لا يمكن أن يستحل ما هو ليس له ، وأنه ما عمل سوى الواجب الذى يمليه عليه ضميره ، وتركه للمرة الثانية وهم بالانصراف ، ولكنه أمسك به ، وأقسم أنه لن يأخذه ، وأنه وهبه له ولمن معه للعشاء ، واستفسر منه عما إذا كان

يستطيع ذبحه ، أم يقوم هو بهذه المهمة ، فأخبره " الفراسة " أنه يستطيع ذبحه وأخذه وانصرف .

استعان " الفراسة " بأحد معارفه ، وقام بذبحه وسلخه ، وتولى أعمال الطهى والشواء ، ودعا أصدقاءه المقربين وبعض الجيران ولم ينصرفوا إلا بعد الإتيان عليه تماما .

ظل " الفراسة " يقظا يفكر فيما حدث ، وحمد الله أنه استطاع التغلب على نفسه الأمارة بالسوء التى وسوست له الاحتفاظ بالحمل ، وعف نفسه عنه فى الحرام ، فأتاه عن طيب خاطر فى الحلال .

الحكاية الثالثة

ثورة الطبيعة

كعادتى ، كلما قادتنى قدماى إلى أرض النوبارية المباركة ، أقضى القليل من الوقت فى المنزل ، والكثير منه فى المزرعة ، وأفضل دائما الذهاب إلى هناك سيرا على الأقدام ، من خلال طريق جانبى هادئ بين المزارع التى تزهو بأشجار الفاكهة والزراعات التقليدية كالفول السودانى والبطاطس والقمح ، وبعض الزراعات القليلة الانتشار كالطماطم والبسلة والبرسيم ، ويسمى ذلك الطريق طريق " الجناين " ، وأسلك ذلك الطريق الجانبى كى أتجنب الطريق الرئيسى بسياراته المارقة فى غير رحمة محدثة الجلبة والضوضاء ونفيرها الذى لا يتوقف يصم الأذان ويرهق الأعصاب .

سرت وبرفقتى رفيق العمر وزميل الدرب قريبى " مؤمن " ، تبادلنا أطراف الحديث ، وانتقلنا من موضوع إلى موضوع ، لم نشعر بالطريق ، وكان الجو صحوا فى ذلك اليوم ، وأشعة الشمس تدغدغ الوجوه بدفئها الحنون ، انحرفنا يمينا على ترعة جانبية تصل بنا إلى الطريق الرئيسى ، وسوف نرتاده لمسافة لا تزيد عن ثلاثمائة متر لننحرف يســــــارا حيث " المشاية " الموصلة إلى المزرعة وغرف المواتير .

تفقدت المزرعة كالعادة ، وتأكدت أنه لا يوجد ما يعكر الصفو ، ثم توجهت ومعى رفيقى إلى " كوخ " صغير مصنوع من ألواح " الأسبيستوس " وبعض القوائم والحمالات الحديدية ، والمحاط بشجرتين توت وعدد من شجر الخروع ، قابع فى الركن الأيمن ببداية المزرعة ويشرف على " المشاية " ، دائما ما نقضى به وقت القيلولة للراحة أو إغفاءة يسيرة من عناء العمل ونحتفظ به ببعض الأطعمة وبراد شاى وعدة أكواب زجاجية وبطة غاز بالإضافة إلى السكر والشاى والبن و" جركن " ماء،وتقبع فى أحد أركانه نارجيلة و " قصعة " من الصاج لزوم فحم النارجيلة وعلبة كبيرة من الصفيح مليئة بالتبغ ، كما يتناثر به وحوله بعض أدوات الزراعة البسيطة ، كالفأس والمنجل وعدة فئوس صغيرة ومقطف جلدى وملابس للعمل .

دخل " سعد السبروت " ـ رجل تعدى العقد السادس من عمره ، كان يشغل منصبا مرموقا بإحدى شركات القطاع العام وأحيل للتقاعد ، له رأس صغير كرأس عصفور ، يتحرك هذا الرأس فى كل اتجاه دائما وكأنه مثبت على سوستة معدنية ، طويل القامة ، نحيل الجسد لدرجة تستدعى الانتباه ، خفيف العقل أو ربما أخبله كبر سنه ـ وأعد لنفسه كوبا من الشاى ، وأشعل النارجيلة ، وبمجرد أن فرغ استلقى على ظهره وراح يغط فى نوم عميق ، ورويدا رويدا علا شخيره فى عزف منفرد كله نشاز كصوت عربة خربة تحتاج إلى " عمرة " كاملة .

فجأة ، غامت السماء وتلاشى ضوء الشمس ، ثم ثارت العناصر ، وغضبت الرياح وهبت عاصفة رملية عاتية ، وازداد صفير الرياح تزامنا مع زيادة حدتها ، وتناثرت حبات الرمال تلسع وجوهنا كالإبر ، واضمحلت الرؤيا بحيث لا يميز المرء بين النهار والليل ، وعلى حين غرة سقط سقف الكوخ على رءوسنا وتبعثرت أجزاءه ، هرولت خارج الكوخ تمسكا بأهداب الحياة ، وساقتنى الرياح أمامها مسافة ليست باليسيرة رغم مقاومتى ، وأدركت فى اللحظات الأخيرة أننى فى طريقى إلى الترعة فرقدت على الأرض وتشبثت بها ، وارتطم بى شئ ، لم أعرفه إلا من صوته وهو يتمتم ويدعو ربه أن ينجينا من هذه الكارثة ، إنه رفيق الدرب " مؤمن " قريبى ، أمضينا بعض الوقت مكومين فى مكاننا ، تتساقط علينا أوراق الأشجار وبقايا الزراعات وأكياس بلاستيكية وكل ما تستطيع الرياح حمله ، بالاضافة إلى الرمال والأتربة التى غطت أجسادنا .

استمرت تلك العاصفة قرابة الساعة ، اعتقدت أنها القيامة ، وأننا فى يوم الحشر ، لم يصمت لسانى عن التضرع لله أن ينجينى مما أنا فيه ، وزاد ابتهالى وتوسلى مع إرتفاع صفير الرياح ، إنها لحظة إيمانية ، فالمرء لا يكون أكثر قربا من الله إلا فى أوقات ضعفه حينما تنقطع به السبل ويضمحل الأمل .

خمدت العاصفة ، وهدأت العناصر ، وسكنت الرياح ، وتلاشى الكثير من ذرات الرمال والأتربة ، وعاودت الشمس السطوع على استحياء ، وتذكرت " سعد السبروت " فأسرعت إلى أطلال " الكوخ " أبحث عنه بين أنقاضه ، ولكنى لم أعثر له على أثر ،

وتبادر إلى ذهنى أن العاصفة قد ألقت به فى المسقاه أو حملته ورمته وسط محصول القمح فى تلك المساحة مترامية الأطراف .

أسرعت أبحث عنه فى المسقاة ، وأتفقد الطريق ربما دفعته الرياح أمام عربة طائشة حال انعدام الرؤيا ، وأسرع " مؤمن " يقطع مساحات القمح جيئة وذهابا وهويصيح متفوها باسمه ، وبين الحين والحين نتلاقى لعل أحدنا يكون قد عثر عليه حيا أو ميتا ، وظللنا على هذا الحال حتى نال منا التعب ، فقررنا العودة إلى المنزل والإستعانة بعدد وافر من الشباب للبحث عنه بمزارع القمح ربما يكون قد أغشى عليه .

فى طريق العودة ، وأثناء مرورنا أمام كافيتريا " العيون الناعسة " خيل إلى أن أحدا يتفوه باسمى ، التفتت خلفى ، ولكن الصوت كان قد توقف ، فواصلت سيرى ، فقرع نفس الصوت أذانى يهتف باسمى ، تسمرت مكانى أتنصت على مصدر الصوت ، فلمحت " سعد السبروت " يسرع الخطى تجاهى ، حتى اقترب منى فبادرنى قائلا :

- إنت كنت فين ، صحوت من نومى فوجدت الكوخ مهدوما ، وسرقت محتوياته ، وأنا شاكك فى الواد " جلهوم أبو جاموس " .

صمتت ولم أرد ، وتركته وانصرفت ، وحمدت الله أنه لا يزال حيا .

الحكاية الرابعة

الطائش

انتصف شهر مايو ، وقام العمال برش أشجار العنب ، وتزويد السمادات بكميات السماد المقررة تمهيدا لرى المحصول ، فعناقيد العنب فى طور التكوين ولا بد من العناية بها فى هذا التوقيت أكثر من أى وقت مضى ، وأدار أحدهم موتور الرى ووقفوا يتفحصون الأشجار فى نشوة فالمنظر العام يبشر بمحصول وافر هذا العام .

فجأة انقطعت المياه ، فأسرع " مبروك " ـ أحد عمال المزرعة ـ إلى غرفة الموتور ، فوجد مفتاح التشغيل متجها إلى أسفل يشير إلى التوقف ، ولمح " سعد السبروت " منزويا وراء غرفة الموتور فى سكون ، فاتجه إليه ، وبمجرد أن شعر به " سعد " أدار وجهه الناحية الأخرى ، وأسند رأسه إلى جدار الغرفة ، وتظاهر بالنعاس ، فأيقظه سائلا :

- مين اللى بطَل الموتور ياعم " سعد " ؟

- معرفش يابنى ، أنا كنت نايم ، هتلاقيه بطل لوحده .

تركه " مبروك " وانصرف ، وأدار الموتور وعاد إلى زملائه ، وبعد قليل توقف ضخ المياه فى شبكة التنقيط مرة أخرى ، فعاد " مبروك " مسرعا إلى الموتور ولمح " سعد السبروت " يخرج من غرفة الموتور ويتوجه إلى مكانه الذى كان يقبع به ، فأسرع إلى الموتور وأداره ، ثم توجه إلى" سعد " وحذره من دخول تلك الغرفة مرة أخرى وإلا سيحدث مالا يحمد عقباه .

ضحك " سعد " ضحكة بلهاء لا تصدر إلا عن طائش أو مختبل ، قائلا :

- الغرفة دى مسكونة ، وهتلاقى عفريت صغير بيهزر معاك وهو اللى بيبطل الموتور .

عاد " مبروك " إلى زملائه ، وأخبرهم أنه لمح " سعد السبروت " وهو يتسلل خارجا من غرفة الموتور ، وأنه هو الذى أوقفه ، لكنه ينكر مدعيا أن عفريتا هو الذى أوقفه ، واسترسل " مبروك " قائلا :

أن رأسه الصغير الشبيه برأس العصفور لا يحوى داخله عقلا سوى عينة يسيرة على قدر ذلك الرأس ، وربما لا يوجد برأسه عقل نهائيا ، ذلك الرجل المهذار الذى أفسد الكبر عقله ، وأكد أنه فى حاله التكرار مرة أخرى فسوف يكسر عظامه حتى لا يقترب من الموتورنهائيا.

بعد قرابة ربع الساعة ، توقف ضخ المياه للمرة الثالثة ، فالتقط " مبروك " عصا غليظة وأخذ طريقه إلى الموتور ، ولكن " مؤمن " استوقفه وطلب منه أن يكمل عمله مع زملائه فى قص الأفرع الزائدة والجافة واقتلاع الحشائش بين الأشجار التى لم تتمكن منها العزاقة ، وأنه سيتوجه إليه لنهره وتأديبه .

أدار " مؤمن " الموتور ثم توجه إلى " سعد السبروت " فى مكانه الذى يقبع به بجوار غرفة الموتور ، وقبل أن ينطق " مؤمن " بادره سعد قائلا :

- مش قلت لكم غرفة الموتور دى مسكونة .

لم يبال " مؤمن " بما قاله ولم يرد ، وقام بحمله وقذفه فى بئر الموتور ، فغاص إلى القاع ثم طفا إلى السطح ، وظل يحاول الاقتراب من السلم الحديدى حتى أمسك به ، وشرع فى ارتقائه حتى أوشك على الخروج ، فعاجله "مؤمن " بركلة قوية فى صدره فسقط بالبئر مرة أخرى وغاص إلى أعماقه ، وتكررت محاولاته عدة مرات ، وكلما أوشك على الخروج أعادته ركلة قوية من " مؤمن " وظل " سعد " على هذا الحال ، حتى خارت قواه ولم يعد قادرا على المقاومة ، فراح يستغيث ويتوسل قائلا :

- فى عرضك ياأستاذ ، مش هقرب منه مرة تانية .

الحكاية الخامسة

الرجفات لا تأتى فرادى

أوشك شهر يناير أن ينقضى ، حيث الشتاء القارس ، والعناصر الثائرة المتقلبة ، وكان الظلام دامسا فى الثامنة والنصف من مساء تلك الليلة ، وكنت أعلم أنها ليلة مضنية ، رغم أننى لن أقوم بالعمل بنفسى ، إلا أننى سأظل يقظا طوال الليل برفقة العمال الذين سيقومون برى المزرعة حتى أضمن أنها رويت بما يكفيها من المياه ، ففى تلك الفترة كانت تزرع بالمحاصيل الحقلية كالقمح والسودانى والبصل والفول والبسلة والبرسيم وخلافه ، وكانت تروى بطريقة الرش ، حيث تمتد مواسير مدفونة فى باطن الأرض حتى محبس يقبع على سطح الأرض فى منتصف المزرعة ، ويتم توصيل ماسورتين طول كل منها أربعة أمتار ونصف بعرض الأرض ، وتتصل تلك المواسير بمواسير أخرى تمتد بطول الأرض بكل منها رشاش ، تفك وتركب فى بعضها البعض ، وعندما يدور موتور الرى ، يتم نثر المياه من خلال الرشاشات التى تستمر لمدة ساعة ونصف تقريبا ، بعدها يتم إضافة ماسورتين للمواسير العرضية ، وتنقل المواسير الممدودة بطول الأرض لتروى مساحة أخرى بخلاف التى تم ريها وهكذا دواليك كلما ارتوت مساحة يتم إضافة ماسورتين عرضيتين وتنقل المواسير الطولية حتى يتم الانتهاء من رى المزرعة كاملة .

فى العاشرة كلفت " مبروك " ـ أحد عمال المزرعة ، قارب الخمسين من عمره ، أعزب ، يغضب ويثور وتتبدل سحنته إذا استفسر منه أحد عن أسباب عدم زواجه ، معروف عنه الطيبة المفرطة والإخلاص والطاعة والقناعة ـ بالنزوح إلى القرية وإحضار بعض الأطعمة التى تكفينا طوال الليل وحتى الصباح ، كما ذكرته بشراء عدة (بواكى) من تبغ النارجيلة ، تلك النارجيلة التى يفضلها " مبروك " عن الطعام والشراب ، ولا يفارق خرطومها فمه .

قبل أن أنهى كلامى كان " مبروك " قد اعتلى دراجته العتيقة ، وراح يسابق الريح ، على الطريق العمومى المؤدى إلى القرية ، ولا يفصله عن المزرعة سوى سور من شجر الجازورين والذى يقترب عرضه من الثلاثة أمتار ، والمزروعة فى صفوف غير منتظمة ، أو كما يقول أهل الخبرة (رجل غراب) ، وقد غرست شرق الأراضى المنزرعة وبمحاذاة الطريق بطوله لكى تكون مصدات رياح .

اشترى " مبروك " ما يبتغيه على عجل ، وفى طريق العودة كانت الرياح فى مواجهته ، مما جعله يبذل مجهودا مضاعفا ، وأثناء سيره سمع صوتا يشبه صوت أنثى فى حالة تزاوج فارتعدت فرائصه ، وقبل أن يتبين مصدر الصوت سقط شئ فوق رأسه ثم هبط إلى الأرض وانطلق مسرعا ، ثم تلاه شئ آخر وأسرع للحاق بصاحبه .

اختل مقود الدراجة فى يده وارتطم بالأرض ، ولكنه نهض من سقطته وجرى مسرعا فى الاتجاه العكسى صوب القرية ، وتوقف عندما خبت الصوت ، وتكهن أن يكون ذلك الصوت صادر عن قطة

يداعبها قط ، لكنها تتمنع أو ربما تتدلل ، إنه لم ير شيئا فى تلك الظلمة الحالكة ، ولكنه يرجح ذلك .

لملم " مبروك " ما تبعثر منه ، وأمسك بمقود دراجته ، وترجل حتى وصل" المشاية " وترك الدراجة بجوار الكوخ المطل على المشاية ، وسار على الطريق العمومى حتى أصبح إزاء المحبس حيث يجلس زملاؤه وسط المزرعة ، وكان عليه أن يتخطى شجر الجازورين الكائن على هيئة سور ، وبمجرد أن خطا خطوة واحدة تعثر فى جسد وسط تلك الغابة من الأشجار ، وانكفأ فوقه ، وأحس بتردد أنفاسه وبدفئ جسده ، فلف ذراعيه فى حركة لا إرادية حول ذلك الجسد وأحكم قبضته ، وقوبل " مبروك " بمقاومة عنيفة صادرة عن الجسد القابع تحته الذى تعثر به ، فأحكم " مبروك " قبضته بكل ما أوتى من قوة ، ربما كان وحشا كاسرا لو استطاع الفكاك منه لالتهمه فى الحال ، أو على أقل تقدير سيحطم عظامه ويتركه جثة هامدة ، وربما كان واحدا من قطاع الطرق أولاد الليل الذين لا يظهرون إلا فى الظلام الدامس ولا يستنكفون إزهاق الأرواح من أجل حفنة قروش أو علبة لفائف .

ظل " مبروك " بعض الوقت بين صد ورد ، فبقدر مقاومة القابع تحته كانت محاولته إحكام قبضته حتى لا يتمكن من الإفلات ، وعندما خشى الوهن والفتور أطلق عقيرته بأعلى صوته مستنجدا ومستغيثا ، وتوالت استغاثاته فى لهفة وذعر .

أسرع زملاؤه لنجدته ، يتحسسون خطاهم على صدى صوته ، وقد حمل كل منهم ما تيسر له ، فهذا حمل معولا ، وذاك أمسك بفرع شجرة ، وآخر بقطعة من حديد ، وأمسك رابع منجلا ،

إلى أن وصلوا إليه ، وأضاء أحدهم هاتفه المحمول ، وأزاحوه مسرعين حتى يجهزوا على القابع تحته .

وكان القابع تحته خروف نحله المرض وأقعدته العلة ، تركه صاحبه يصارع الموت حتى ينفق ، ولكن تمسكه بالحياة جعله يقاوم " مبروك " الذى انتابه الذعر من هول المفاجأة.

ألقى كل منهم ما فى يده ، وارتمى أرضا يطلق ضحكات هيستيرية وقد عقدت المفاجأة ألسنتهم عن الكلام ، أما مبروك فظل يرتجف ويرتعد ولم يقو على صلب عوده ، فحملوه إلى الكوخ ، وظلوا بجواره حتى استرد أنفاسه وعادت إليه عافيته ، فأخبرهم أنه بعد ما حدث له تلك الليلة فلن ينجب ، وسرعان ما تذكر أنه لم يتزوج ، فالتزم الصمت وتقطب جبينه وتغيرت سحنته .

وأسرع أحد زملائه يشعل الفحم وهو يخبرهم :

- لن يستعيد عافيته إلا بعد جذب عدة أنفاس .

وأمسك خرطوم النارجيلة وألقمه فى حلقه وسط توالى ضحكاتهم وسخرياتهم .

الحكاية السادسة

قلة الليل ذئب

كان " مبروك " ـ ذلك الرجل طيب القلب ، فى الخمسين من عمره ، أعزب ، يتسم بالإخلاص فى عمله ، والطاعة العمياء ـ سيمضى ليلته فى المزرعة للرى ، وأخبرته أننى سوف أحضر إليه فى تمام الحادية عشرة ليلا ، وبرفقتى بعض العمال بعد انتهاء مباراة النادى " الأهلى " ونادى " كوتوكو" ، وسأحضر معى كل متطلباته فى حالة فوز النادى الأهلى ، أما لو كان العكس ـ لا قدر الله ـ فسوف يبيت دون عشاء ، ولن يشتم رائحة التبغ الذى لا غنى له عنه .

أدار " مبروك " الموتور ، وبدأ الماء يتناثر من خلال الرشاشات ، يدغدغ حواس التربة ، ويبعث الحياة فى المزروعات الكائنة بها ، وأخذ يجمع بعض فروع الأشجار الجافة لإشعالها ، كى يعلو صوت كركرة النارجيلة يخالطها ارتشاف أكواب الشاى ، والدندنة ببعض الأغانى التى دائما يرددها للتسلية ولتخفيف مشقة العمل .

عندما اشتعلت النيران وتوهج اللهب ، لمح " مبروك " ذئبا قابعا وسط " المشاية " على مسافة يسيرة منه فانتابه الذعر ،

وتسرب الخوف إلى نفسه وتمكن منه ، وأيقن أن هذا الذئب لو هاجمه فسوف يمزقه إربا إربا ولن يشعر به أحد .

خبا لهب النار قليلا ، وانحسر الضوء المنبعث عنها ، فرأى الذئب يتحرك تجاهه فى خطوات متئدة ، وأيقن قرب نهايته ، فإنه لن يستطيع الهرب ، وإلى أين يهرب فى تلك المساحات الشاسعة من الأرض المكشوفة ، وكيف يتسنى له الهرب أمام سرعة الذئب الفائقة ، فسوف يلحق به لا محالة ، فقرر أن يظل ساكنا مكانه دون إبداء أى حركة كاتما أنفاسه ، وتذكر مقولة أسلافه أن الذئاب تخشى النيران ، ولا تجرؤ على الاقتراب منها ، فأخذ يزكى النيران بفروع الأشجار الجافة وبقايا المحاصيل وبعض العبوات البلاستيكية حتى توهج اللهب وارتفع الضوء ، ثم أسرع بالاختباء وراء أجولة السماد المتراصة بجوار محبس المياه ، وعينه ترقب الذئب ترصد حركته حتى لا يتسلل إليه فجأة وينقض عليه .

عندما علت النيران ، لمح " مبروك " الذئب ساكنا فى مكانه ، فهدأ قليلا وأقنع نفسه أن سكونه هذا خشية النيران التى أشعلها ، وظل مختبئا مكانه يرصد حركته ، ورويدا رويدا بدأ لهب النيران يخبو والإضاءة الصادرة عنها تضمحل ، فلمح " مبروك " الذئب يخطو متباطئا فى طريقه إليه ،فخف مسرعا فى حذر يزكى النيران مرة أخرى ، وعاد إلى مخبئه فى سكون .

انتهت المباراة ، وفاز النادى الأهلى على نادى كوتوكو العنيد ، فاصطحبت اثنين من العمال ، وبعض الأطعمة

والمستلزمات التى وعدت " مبروك " بها ، وعندما دخلت المزرعة ، واستقر بى المقام وسطها بجوار المحبس لم أجد مبروك ، فعلا صوتى مناديا ، وتكررت نداءاتى ، ولمحته يتسلل من بين أجولة السماد ، وهو يضع إصبعه على فمه يشير لى بالصمت ، واقترب منى وهو يشير بيده تجاه المشاية ، وأخبرنى أن هناك ذئبا يتربص به منذ أكثر من ساعتين ، ويبدو أنه جائع ، ومن المؤكد أنه سيهاجمهم ، فطمأنته أنه لن يجرؤ على مهاجمتنا ، وأنه سوف ينصرف إلى حال سبيله بحثا عن رزقه فى تلك البقاع مترامية الأطراف .

استعاد " مبروك " جزءا من شجاعته لوجودنا بجواره ، وتسلل من خلال أشجار " الجازورين " إلى الطريق ، وطوى طرف جلبابه وملأه بالحجارة ، واقترب من موضع الذئب بعض الشئ ، وأخذ يقذفه بتلك الحجارة ، ولكن الذئب لم يهرب ولم يبتعد تفاديا لقذائفه ، فتراجع " مبروك " مدركا أن الذئب من النوع الشرس ، ولا سيما أن الحجارة التى معه أوشكت على النفاذ .

أسرع " مبروك " يرافقه اثنان من العمال بإحضار الحجارة ، وتناوبوا قذفه ، وأخيرا سمعوا صوت طقطقة ، وارتمى الذئب أرضا ولم يبد حراكا ، فأيقنو أن حجرا ارتطم برأسه ، وحطم جمجمته ، فأسرع أحدهم وأشعل خرقة بالية ، وحمل كل من الآخرين فرع شجرة ضخما ، واقتربوا منه بحذر ليجهزوا عليه ، ويوسعوه ضربا حتى الموت .

عندما اقتربوا منه اكتشفوا أن ذلك الذئب المزعوم ما هو إلا قلة ماء يعلوها (كوفية) بها بقايا طعام ، وضعها أحد العمال ، وعندما أصابها حجر تهشمت وسقطت (الكوفية) ، فعادوا وهم يضحكون ويتهكمون ويسخرون من " مبروك " الذى هيأ له خوفه القلة ذئب .

الحكاية السابعة

البشر ألوان

لكل قانون سلبياته وضحاياه ، فطالما أنه من وضع البشر فاحتمال عوار يعتريه وقصور ينتابه قائم ، ولذلك لا يستمر سريان أى قانون للأبد دون تعديل ، فتسارع الجهات التشريعية بتدارك أى عوار وعلاج أى قصور كلما قضت الحاجة .

فعندما صدر قانون العلاقة بين المالك والمستأجر بخصوص الأرض الزراعية ، واسترد المالك أرضه ، وفقد الكثير من المستأجرين الأرض التى كانت مصدر رزقهم ، سارعت الدولة بمد يد العون لتلك الفئة المتضررة ، ومنحت كل منهم فدانين ونصف الفدان فى الأراضى الجديدة المستصلحة بالإضافة إلى منزل ، وعرفوا بـ " المنتفعين " .

كان " هريدى " أحد المنتفعين ، وسارع ببيع داره الصغيرة التى كان يمتلكها والموروثة عن أمه ، وأحضر متاعه المتواضع ، وزوجه وأولاده الأربعة ، وبقرة شابة وحمارمنتهى الصلاحية ، واستقر بمنزله الذى تسلمه .

أثبت " هريدى " تفوقا على أقرانه فى عدد ساعات العمل التى يقضيها داخل أرضه ، فهو يبدأ مع بزوغ الفجر حتى أذان العشاء وأحيانا بعدها وبصحبته أسرته وبقرته وحماره ، ومنذ الوهلة الأولى بدأ يصدر الفتاوى الزراعية والإرشادات الحقلية والنصائح البيطرية فى كيفية الارتقاء بالزراعة والثروة الحيوانية .

دائما وأبدا يرتدى " هريدى " قميصا " كاروهات " باللونين الأحمر والأسود ، وبنطلونا أسود اللون يشده إلى خاصرته بحبل ، فهو لن يستقر فى مكانه بدون ذلك الحبل لنحافته ودقة خصره ، وهويرتديهما ليل نهار ، فى عمله وفى بيته ، فى صحوه وفى منامه ، بل وفى كل المناسبات حلوها ومرها ، رغم أنهما اهترئا وبليا وكادت ألوانهما أن تطمس ، وعلقت الأوساخ بهما وأضحت جزءا لا يتجزأمنهما .

وكان وجهه ممصوصا ولونه شاحبا ، وعيناه غائرتان مكتسيتان باللون الأحمر ، وأسنانه صفراء منفرة بارزة من فمه الموارب دائما ، يبدو كلما رأيته وكأنه يحمل هموم كل البشر ، لا تعرف البسمة طريقا إلى ثغره ، تستطيع أن تميزه دون أن تراه بمجرد سماع صوته الشبيه بنقيق الضفادع .

بعد استلامه أرضه بعدة أيام ، جلس مع أحد جيرانه يتناقشان فى بعض الأمور الزراعية ، وعندما باح برأيه ، عارضه جاره مبديا عدم قناعته بما أبداه ، فأسرع إلى فأسه وهم بضربه ، ولكن جاره ولى هاربا ، فلم يتركه وتتبعه فى محاولة للحاق به ، وتدخل أهل

القرية لمنعه ، وظلوا يحاورونه حتى خمدت ثورته ، فترك فأسه وجلس بينهم والشرر يتطاير من عينيه ، وبادرهم قائلا :

- أنا مش عاوز الدنيا ، ولا الدنيا عاوزانى .

فى اليوم التالى مباشرة ، لمح هريدى مقطورة صغيرة من الطوب الأحمر ، وكومة صغيرة من الرمال ، وعدة شكائر أسمنت أمام أحد المنازل بعيدا عن نهر الشارع ، فاقتحم المنزل وهو يثرثر ويتهته طالبا ضرورة رفع تلك المواد ، وإلا سيشعل فيها النيران ، وأخذ يسب ويلعن بأقذع الكلمات ، فأسرع صاحب المنزل لتهدئته دون جدوى ، وتمادى فى وقاحته حتى نفذ صبر الرجل ، فهجم عليه وأخذ يكيل له الضربات يعاونه أفراد أسرته حتى تلطخ وجهه بالدماء ، ولم يبد منه إلا الكدمات والكردوغات على جبينه ورأسه ، وعندما تجمع الجيران ، ووقفوا حائلا بين تلك الأسرة وبين " هريدى " وأنقذوه من أيديهم ، فر مسرعا يهدد ويتوعد قائلا :

- أنا مش عاوز الدنيا ، ولا الدنيا عاوزانى .

بعد مرور أسبوع اعترض " هريدى " غلامين من أولاد " ضرغام الصعيدى " ، أكبرهما يبلغ اثنا عشر عاما ، ويصغره الآخر بعامين ، ومنعهما من المرور أمام أرضه بحجة أن بهائمهم ممكن أن تنفلت منهما ، وتخوض فى أرضه ، وتتلف ما بها من زرع ، رغم أن أرضه سوداء جرداء لم تزرع بعد .

رجع أولاد "ضرغام الصعيدى" بمواشيهم إلى منزلهم ، وأخبروا أباهم بما حدث ، فحضر على الفورمصطحبا أخوته وأولاد عمومته ، ووجه أحدهم إليه لكمة قوية فى وجهه أبعدته عدة أمتار ، فتلقاه آخر بضربة مشابهة أعادته إلى مكانه الأول ، وركله ثالث ركلة قوية طرحته أرضا ، وأسرع رابع وجمع تلابيبه وأوقفه صافعا إياه عدة صفعات قوية متتالية ، وأسرع الباقون يكيلون له اللكمات فى غير هوادة فسقط أرضا مغشيا عليه ، ورغم ذلك توالت الركلات .

عندما التقط " هريدى " أنفاسه ، ظل يحاول جاهدا حتى انتصب واقفا ، ولكنه كان أشبه بالطفل الصغير فى بدايات محاولاته الوقوف والمشى ، وأسرع بخلع قميصه وألقى به ، وأخذ يهدد ويتوعد ، وقبل أن ينطق هتف الحاضرون جميعا وكأنهم على موعد سابق واتفاق مبرم :

- عارفين ، إنت مش عاوز الدنيا ، ولا الدنيا عاوزاك .

خطا شاب من أولاد " ضرغام " عدة خطوات تجاهه ، ففر هاربا وهو يترنح ، يسقط على الأرض ثم ينهض مسرعا ملتفتا خلفه ويواصل فراره ، وتوالى سقوطه عدة مرات ، فتوقف الشاب وعاد أدراجه .

وقف رجل طاعن فى السن يمصمص شفتيه عجبا راثيا حال " هريدى " ، فكل أهل القرية من " المنتفعين " حرثوا الأرض

ونثروا الحب ، وأولوها عنايتهم من تسميد ورى حتى نما الزرع واكتست باللون الأخضر ، إلا هو لم يفعل شيئا بأرضه رغم تواجده طوال الوقت بها ، فهو كثير الكلام قليل الفعل ، ويذكرنى بالمثل القائل : إنى أسمع جعجعة ولا أرى طحنا .

وصمت الرجل هنيهه ، ثم استرسل :

- دا مش " هريدى " دا " عباسية " .

ومنذ ذلك اليوم أصبح معروفا بـ " عباسية " ، ونسى الناس اسمه الحقيقى .

الحكاية الثامنة

لون آخر من البشر

" شحاته قرموط " ـ محاسب بإحدى شركات القطاع الخاص ، فى الخامسة والثلاثين من عمره ـ يملك قطعة أرض بإحدى قرى شباب الخريجين بالنوبارية ، تقدر مساحتها بخمسة أفدنة ، يقوم بزراعتها بنفسه ، ويصطحب شقيقه الأصغر أحيانا لمعاونته مقابل أجر ، ولا يستعين بعمال المياومة إلا فى أضيق الحدود .

زرع " شحاته " أرضه فول سودانى ، ونما المحصول وكساها باللون الأخضر ، وانتشرت بها الحشائش والنجيليات والنباتات الغريبة ، وأيقن ضرورة عزق الأرض وتقليب التربة واقتلاع تلك الحشائش حتى لا تؤثر سلبا على محصوله ، لكنه لن يستطيع القيام بذلك بمفرده فى الوقت المناسب ، فنزح إلى مسقط رأسه ، وعاد فى اليوم التالى مصطحبا كلا من شقيقه " خيشه " ــ شاب يصغره بخمسة عشر عاما ، لم يتلق سوى قسطا ضئيلا من التعليم ــ والحاج " عبد الصبور " ــ رجل مسن تجاوز الثمانين من عمره ، يمتهن الزراعة طوال حياته ، صلبا متمرسا لا يكل ولا يمل من طول ساعات العمل .

بدأ الثلاثة عملهم فى الأرض منذ الصباح الباكر حتى أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة بعد الظهر دون أن يتذوقوا أى طعام ، وعندما اقترح " عبدالصبور " أن ينالوا قسطا من الراحة لتناول الغذاء ، طلب منه " شحاته " أن يواصل عمله لحين ذهابه إلى القرية لإحضار ما يلزمهم ، وتسلل إلى أرض مجاورة يمتلكها أحد معارفه ، وعثر على بعض الأطعمة المتبقية فالتهمها وارتشف كوبا من الشاى ، ثم عاد إليهما زاعما أن حافظة نقوده فقدت منه ، وهمس فى أذن شقيقه بوجود لقيمات فى الأرض المجاورة ، فانسل إلى هناك وسد رمقه تاركا " عبد الصبور " يعانى الجوع .

بعد غروب الشمس بساعة عادوا جميعا إلى المنزل ، وأسرع " شحاته " بوضع كسرات من الخبز الجاف ، وأمسك بفحل " بصل " ووضعه أرضا ، وانهال عليه بجمع كفه حتى تفتت ، وألقى لكل منهما شريحة ، وأمرهما بسرعة الانتهاء من الأكل لينالا قسطا من الراحة حتى يستطيعان القيام فجرا لأداء عملهما ، فراحا يلتهمان ما أمامهما وكل منهما ينظر للآخر فى حسرة ، وسمع صوت جرش وهم يقضمون لقيمات الخبز الجاف وكأنهم فى سباق .

فور الانتهاء من تناول الطعام أبدى " عبد الصبور " رغبته فى تناول كوبا من الشاى ، لكن " شحاته" نهره قائلا :

- لو شربت شاى ، هاتفضل سهران طول الليل ، وإحنا هانصحى بدرى ، اتخمد ونام.

أسرع " شحاته " إلى السرير الوحيد بالمنزل ، وأشار لهما تجاه قطعة من الحصير ، فتوسد كل منهما حذاءه ، وتمدد فى سكون ، وفجأة استيقظ " عبد الصبور " كمن تذكر شيئا ، وطلب من " شحاته " أن يشعل له سيجارة ، فأخبره بنفاذ سجائره ، وبعد برهه تسلل " شحاته " من منزله إلى الشارع ، وانزوى جانبا وأشعل سيجارة ، ثم جلس على الأرض متربعا يسحب الأنفاس إلى أن أوشكت على الانتهاء ، فسحب نفسا طويلا ثم ألقى بها أرضا وداسها بقدمه ، وعاد متسللا إلى المنزل يسير على أطراف أصابعه ، وآوى إلى فراشه فى صمت .

عندما أذن المؤذن لصلاة الفجر ، استيقظ " شحاته " وأيقظ كلا من " عبد الصبور " و شقيقه وأعطى كل منهما كسرة خبز جافة ، مضى عليها أكثر من شهر ملقاة فى " مقطف " قديم مهمل ، ومد يده إلى رف مثبت على أحد الجدران ، وأتى بطبق به قليل من (المش) وبلل الكسرة التى فى يده ، وطلب منهما أن يبلل كلا منهما كسرته على عجل دون أن يجور على محتواه ، ليتناولوها أثناء سيرهم إلى الأرض .

انخرط الثلاثة فى عملهم منذ الصباح الباكر حتى وقت الأصيل دون أن يتلفظ أحدهم بكلمة ، حتى قطع " شحاته " هذا الصمت المهيب طالبا منهم مواصلة عملهم لحين قضاء حاجته والعودة إليهم ، وتوجه إلى نفس الأرض المجاورة حينما لمح العمال يغادرون أماكن عملهم لتناول الغذاء ، فهو طيلة الوقت كان يرقبهم وينتظر تلك اللحظة .

جلس " شحاته " القرفصاء وسطهم ، وأخذ يلتهم اللقمة تلو الأخرى ، حتى فرغوا من طعامهم ، وأسرع أحدهم بإعداد الشاى ، فجلس يتجرع كوبه وهو يرمقهم خلسة ، وناوله أحدهم سيجارة ، فاعتدل فى جلسته وأشعلها ، وبمجرد أن فرغ منها عاد أدراجه إلى أرضه ، وبادرهما قائلا :

- يللا ، كلها ساعتين ونروح ، ونقعد ناكل براحتنا .

عادوا إلى المنزل بعد الغروب ، وكان العشاء هو نفس عشاء اليوم الذى سبقه ، وعندما تضجر " عبد الصبور " وطلب منه أن يعطيه جنيها من أجره ليحضر لنفسه عشاء ، أخبره أنه سيخصم أجر الأيام التى عملها معه من المديونية التى يدينه بها ، ونظر إلى شقيقه قائلا :

- فلوسك يا " خيشة " ، مش هاتاخدها إلا أدام أمك ، عشان تكون شاهدة عليك .

استيقظ " شحاته " عند أذان الفجر ، وأيقظهما الاثنين ، وجاد عليهما بنفس وجبة إفطار اليوم السابق ، وهى لا تختلف عن وجبة إفطار الأيام السابقة منذ قدومهما فى شئ ، وأسرعوا لأداء عملهم .

طلب " شحاته " منهما سرعة الانتهاء من عملهما ، فقد مضى أكثر من عشرة أيام تكبد خلالها تكاليف باهظة ، وهما لا

يحركان ساكنا ، وكأن على رءوسهما الطير ، ونظـــر إلى " عبد الصبور " نظرات الوحش لفريسته قائلا :

- مه اللى إيده فى الميه ، مش زى اللى إيده فى النار .

أمضى " خيشة " و " عبد الصبور " يومهما فى عمل مضنى ، فهما يريدان الخلاص ، أما " شحاته " فأمضى يومه كعادته ، يتحين الفرصة للحصول على لقيمات من الجيران مهما كانت قليلة تاركا شقيقه و " عبد الصبور " ، فكل ما يعنيه ألا ينفق شيئا ، وكلما أراد أن يشعل سيجارة ، وجد المبررات وابتعد عن أعين " عبد الصبور " حتى لا يطالبه بسيجارة .

أتموا عملهم الذى تواجدوا من أجله ، فطلب " شحاته " منهما أن يسبقاه إلى المنزل ، وسوف يحضر طعام العشاء ويلحق بهما ، وبمجرد انصرافهما ، أخذ وجهته إلى أرض أحد الجيران ، وانتقى حزمة من أعواد الجرجير ، ولحق بهما .

بمجرد أن وطأت قدماه المنزل أخبرهما أنه أعد لهما مفاجأة من العيار الثقيل بمناسبة إنهاء مهمتهما ، فسوف يدعم طعام العشاء بحزمة من الجرجير الطازج الذى لم يتذوقا مثله طوال حياتهما .

تناول " خيشة " و " عبد الصبور " العشاء على مضض ، وكل منهما يندب حظه فى مرارة وأسى ، وتمددا على قطعة الحصير الملقاة أرضا كعادتهما ، وقد توسد كل منهما ذراعه فى تلك الليلة

بدلا من حذائه ، متمنين بزوغ الفجر وطلوع شمس يوم الخلاص ، آملين الرحيل للخلاص من مرارة الحرمان .

غادر " شحاته " منزله فى الصباح ، مصطحبا شقيقه و " عبد الصبور " للعودة إلى بلدتهم ، وأثناء مرورهم أمام كافيتريا " العيون الناعسة " ، طلـــــــب " شحاته " من " عبد الصبور " الانتظار بها قليلا لشراء بعض الحاجيات والعودة سريعا ، واصطحب شقيقه وسارا عدة خطوات ، ثم اتجها إلى الطريق العمومى واستقلا إحدى العـــــربات ، تاركين " عبدالصبور " قابعا فى أحد الأركان بالكافيتريا ، وتمتم شحاته يحدث نفسه قائلا :

- لو كان " عبد الصبور " معانا كنت هاضطر أدفع له أجرة العربية .

والتزم " شحاته " الصمت طوال الطريق حتى أوشكت العربة أن تصل إلى الموقف ، رمق شقيقه بطرفى عينيه قائلا :

- عشان تبقى عارف ، هخصم أجرة السكة منك لما نيجى نتحاسب ، وكمان مصاريف الأكل ، أنا مقيد كل حاجة ، ولا انت مفكرها مولد وصاحبه غايب .

الحكاية التاسعة

كل شئ قسمة ونصيب

فى ضحى أحد الأيام ، ذهبت إلى المزرعة يرافقنى قريبى " مؤمن " الذى يماثلنى فى معظم طباعى ، فهو يميل إلى الهدوء ويعشق الطبيعة ، ورغم أنه يمتلك عدة أفدنة من الأرض الزراعية فى قريتنا ، إلا أنه لايكاد يعرف عنها شيئا ، ولا يمارس أية أنشطة زراعية بنفسه ، ولكن عندما تطء أقدامنا أرض المزرعة بالنوبارية ، فإنه يعمل بجد وإتقان حتى يخيل إليك أن الفلاحة هى مهنته الأساسية وأنه لا يجيد سواها .

تفقدنا المزرعة وتأكدنا أن كل شئ يسير على ما يرام ، ثم جلسنا تحت ظل شجرة وارفة ممتدة الظلال نرتشف أكواب الشاى ، ومكثنا بعض الوقت نتنعم بنسمات الهواء العليل ، ثم نهضت وهو برفقتى حتى خرجت من المزرعة إلى " المشاية " ــ طريق عرضه ثلاثة أمتار تقريبا ، غير مسفلت ، يمر بين المزارع ــ ثم اتجهت إلى غرف مواتير الرى ، وألقيت نظرة على تلك المواتير ، إن كل موتور مخصص لرى عشرين فدانا ، وهو موتور كهربائى داخل حجرة مبنية بالطوب الأحمر ومسقوفة بالخرسانة المسلحة ، ومثبت عليها بوابة حديدية بمغلاق ، يسحب هذا الموتور الماء من

بئر مبنى خلف تلك الغرفة مربع الشكل طول ضلعه أربعة أمتار ، ونفس العمق تقريبا ، مثبت بأحد جدرانه من الداخل سلم حديدى يستخدم لتطهير البئر من الرواسب والمخلفات التى تعوق سحب المياه منه كالأكياس البلاستيكية ، والمياه تصل ذلك البئر من خلال مسقاه فرعية ، تستمد مياهها من ترعة النصر الرئيسية ، لتسير بعد ذلك فى مواسير مدفونة بباطن الأرض لرى المزارع بالرش أو التنقيط .

كان اليوم يوم أحد ، وهو يوم الصيانة الأسبوعى للترع الفرعية حيث يتم غلق الهويس ليتوقف ضخ المياه ، ونظرا لاستمرار أعمال الرى ينخفض منسوب المياه فى الترع وبالتالى فى البئر ، ويتم تطهير مداخل تلك الترع .

اقترب عصفور منى ــ وعصفور هذا ليس طائر ، وإن كان يحمل من صفات وطباع اسمه الكثير ، إنه فتى فى الثالثة عشر من عمره ، ولكنه يملك عقل وحنكة رجل فى الستين ، خفيف الحركة ينتقل من مكان إلى مكان فى رشاقة ، يجيد جميع أعمال الزراعة إجادة تامة ، حتى أنه أصبح مصدرا للفتوى والمشورة فى الأمور الزراعية ، يحفظ دروب ومسالك تلك المنطقة لـتواجده بها منذ نعومة أظفاره بمفرده ، ولا أحد يعرف موطنه الأصلى ، وكثرت التكهنات وتعددت الروايات ، أما هو فلا يشغل باله ، ولا يعقب على ما يدور ــ وفى يده جوال ، وأخبرنى أنه سوف ينزل البئر لاصطياد ما به من أسماك ، وأنه سيترك الجوال لأحفظ به الأسماك التى يقذفها لى ، حاولت إثنائه خشية عليه ، لكنه ضحك ضحكة

الواثق من نفسه ، وأخبرنى أن منسوب المياه منخفض جدا ، وأنه اصطاده عشرات المرات من قبل ، ولم ينتظر منى ردا ، وأسرع بخلع ملابسه إلا ما يستر عورته ، وهبط درجات السلم ، وأخذ يتحسس قاع البئر بكلتا يديه ، وبدأ قذف الأسماك ، وأسرعت فى لقفها يعاوننى " مؤمن " وإلقائها فى الجوال حتى أوشك على الامتلاء .

ارتقى " عصفور " السلم ، وارتدى ملابسه ، وأخبرنى أنه سيقوم بجمع الحطب وشواء ما يتيسر له بما يكفى حاجة المتواجدين .

اقترحت عليه أن يحمل جواله ، ويذهب إلى منزلى بالقرية ، ويعد ما يحلو له من مقليات ومشويات وصوانى ، بالإضافة إلى الأرز والسلطات وخلافه ، وأننا سوف نلحق به عند الغروب ، فوافق على الفور وحمل جواله وانصرف ، ومنيت نفسى بوجبة دسمة طازجة ، فأنا أعرف قدراته فى طهى كل أصناف الطعام ومقدرته على الابتكار ، وليست تلك هى المرة الأولى ، فكثيرا ما استعنت به وخصوصا عندما يكون برفقتى بعض الأصدقاء ، ودائما كان يحوز على إعجابهم .

أوشكت الشمس على المغيب ، فقررت العودة إلى المنزل وبرفقتى " مؤمن " وسرت الهوينى ، وبمجرد استقرارى بالمنزل ، أخذ " عصفور " يرص العديد من أطباق السمك والأرز والمخللات والسلطات وخلافه ، وكان بالمنزل العديد من الجيران

المحببين إلى قلبى فى انتظارى ، وكانت رائحة الشواء تزكم الأنوف وتعبق أجواء المنزل بل وتنتشر عبر الأثير إلى الشارع والمنازل المجاورة .

اقترب عصفور منى قائلا :

- الغدا جاهز ياأستاذ .

نهضت واقفا لأعطى إشارة البدء والتهم ما يطيب لى من أصناف الطعام وخصوصا أن الجوع قد استبد بى ، وتعالت أصوات أمعائى تعلن خلوها من الطعام ، فأنا منذ الصباح لم أتناول سوى نصف رغيف محشو ببيضة مسلوقة ، وقد أقبل الليل .

علا صراخ مفجع ، وتوالت الصيحات ، وسمع ولولة نساء ، وانتشر الهرج والمرج ، وكثر دبيب الأقدام ، فأسرعنا جميعا بالخروج للوقوف على حقيقة الأمر ، ورأينا حريقا هائلا يلتهم منزل " جلهوم أبو جاموس " ، ورغم أن " جلهوم " هذا يتسم بالكثير من اسمه ، ولا يعرف شيئا عن فن التعامل مع البشر ، ويعيش لنفسه فقط ، ولا يشارك الناس أفراحهم ولا أتراحهم ، ولا يستعير شيئا من أحد ، ولا يعير شيئا لأحد ، إلا أن الجميع نفروا على الفور ، هذا أحضر خرطوما وأوصله بصنبور المياه وسلطه على النيران ، وذاك يخرج ما يقدر عليه من متاع داره ويبعده عن النيران ، وتلك تملأ طستا بالمياه وتقذفه فى وجه النيران ثم تعاود مرة أخرى ، وآخر هجم على النيران ببطانية أو ملحفة لإخمادها ،

ولم يبال أحد بلسعات النيران وما قد يحدث عنها من إصابات ولا بالدخان الأسود الكثيف الخانق .

بعد قرابة الساعتين ، تم إخماد الحريق ، وانصرف الجمع تاركين منزل " جلهوم أبو جاموس " يعج بالمياه والأشياء المتفحمة ، وأثار الدخان تغطى كل شئ ، وأمتعته مبعثرة وملقاة فى نهر الطريق ، وامرأته تولول وتندب حظها ، و " جلهوم " يكيل لها الضربات بحذاء قديم بال على أم رأسها مدعيا أنها سبب الحريق الذى دمر حياته ، وشمت به أعداؤه .

عدنا إلى المنزل لنجد القطط والكلاب التهموا الطعام نيابة عنا ، وتناثرت بقاياه على الأرض فى كل مكان ، وبمجرد دخولنا لازت القطط والكلاب بالفرار فهى تعلم أنها أخذت ما ليس لها .

صحت مناديا " عصفور " فأتى مسرعا ، فأعطيته ورقة مالية محاولا إخفاء بوادر حسرة وغضبا أن تطفو على صفحة وجهى قائلا :

- هات لنا شوية سندوتشات فول وطعمية ، بس بسرعة .

الحكاية العاشرة

تنين موسى

كان الوقت وقت القيلولة ، فى يوم من أيام شهر يونيه حيث توهج الشمس بحرارتها المحرقة التى تلفح الوجوه ، وتترك بصمتها الخمرية عليها ، وقد سكنت العناصر ، وبدا كل شئ فى حالة موات ، وتوارى البشر فى منازلهم إلا القلة القليلة ، وحتى تلك القلة ، منهم من توارى تحت ظل شجرة وارفة ، ومنهم من تمدد فى خص وغلبه النعاس فراح يغط فى نوم عميق ، ومنهم من أرخى جسده المكدود من عناء العمل بين النعاس واليقظة .

قطع ذلك الصمت الرهيب صراخ مشوب باللهفة والاستغاثة ، وتعالت حدة الصراخ ، وتوالت صيحات الاستغاثة ، ولوحظ شخصا يجرى على شط مسقاة جانبية ، ثم يتجه إلى غرف المواتير ، ويعود أدراجه مسرعا ، وكلما تسارعت خطواته علت صرخاته وتوالت استغاثاته حادة أحيانا ومتهدجة أحيانا أخرى ، وأخيرا أخذ ذلك الشخص الملهوف طريقه من غرف المواتير مستلما " المشاية " المؤدية الى الطريق العمومى المؤدى إلى القرية ، وما أن وصل ذلك الطريق حتى استدار مطلقا ساقيه للريح تجاه غرف المواتير مستمرا فى اطلاق صرخاته واستغاثاته .

تصادف مرور حافلة قادمة من قرية سيدنا " سليمان " ومتجهة إلى مدينة " شبين الكوم " ، فتوقف السائق على الفور ، وبدأ هطول أعداد كبيرة من الرجال والشباب وقلة من النساء ، وأسرعوا يلبون النداء مثنى وثلاث ورباع ، وشاركهم نفر من هؤلاء المستكينين من حرارة الشمس ، وأخذوا يجرون خلفه ويتتبعونه ، واستمر يجرى بمحاذاة المسقاة الجانبية إلى غرف المواتيرومنها إلى الطريق العمومى ثم يعاود أدراجه وهم يلاحقونه حتى أمسكوا به ، عرفه كل من كانوا يقيلون بأراضيهم أو فى ظلال إحدى الأشجار الوارفة ــ إنه " موسى " ـ رجل فى الأربعين من عمره ، أتى إلى تلك القرية ، واشترى قطعة أرض من أحد المنتفعين ، واستقر بها مع زوجته وطفلته الصغيرة ، واشتهر بالحكمة والمروءة وحب الخير ، لم تشوبه شائبة منذ قدومه ــ وأخذ جسده ينتفض محاولا الفكاك من قبضتهم ، وهو يشير بيده إلى الفضاء الشاسع الممتد حتى نهاية البصر ، ونظراته الزائغة تدور فى الأفق الرحب حائرة فى كل اتجاه ، وبين الحين والحين يحاول الإفلات من قبضتهم وكأنه يود الهروب من شئ يطارده ، ولكنهم حالوا بينه وبين ذلك ، وجثم أحدهم فوق صدره وقيد حركته ، ورويدا رويدا استكان وخفت رجفة جسده ، واستقرت نظراته ، ففكوا حصارهم له ، وتركوه يسترد أنفاسه اللاهثة ليستوضحوا منه حقيقة الأمر .

أشار " موسى " بيده إلى الأفق البعيد ، وأخبرهم أن تنينا ضخما هناك يبلغ طوله أكثر من خمسة عشر مترا ، وله رأس يفوق حجم رأس جاموسة ، وقطر جسده يقترب من المتر ، هاجمه

باستماته فاتحا فاه محاولا ابتلاعه ، وقد ابتلع غلاما فى ثوان معدودة كان قد انزلق فى جوفه ، أظن أنه " عصفور " ولولا تمسكه بأهداب الحياة ، وبذله كل ما فى طاقته ، وبعون من الله لكان الآن يقبع فى بطنه بجوار " عصفور " ، ساعده فى ذلك ثقل حركة التنين فى الاستدارة ، فكانت حركته أسرع منه وأخف كلما عكس اتجاهه وعاد من حيث أتى .

ارتعد الكثيرون من ركاب الحافلة وأسرعوا إليها وهم يلتفتون ذات اليمين وذات اليسار وتحت أقدامهم حتى استقروا بمقاعدهم ، أما القلة الباقية فاتسموا برباطة الجأش ، وراحوا يرقبون حركة المياه فى المسقاة ، ويبحثون عن ذلك التنين وسط المزروعات ، وبين أفرع الأشجار اليابسة ، ووسط أدوات الزراعة البسيطة ، وكأنهم يبحثون عن " ابن عرس " (تلك الدويبة الصغيرة التى هى فى حجم الفأرة) ، وأبدى بعضهم قدرا من الذكاء والفطنة ذاكرين أن تنينا بهذا الحجم لا يختفى بين تلك الأشياء البسيطة ، فكل ذى عينين يستطيع رؤياه عن بعد حتى لو كانت تلك العيون قد أصابها العشى ولا تمتلك إلا القدر الضئيل من الإبصار ، فلا بد أن له أجنحة ويستطيع الطيران ، واكتفى بابتلاع " عصفور " وابتعد عن المكان .

بعد هنيهة أقبل " عصفور " مسرعا يضرب الأرض برجليه حتى وقف بينهم ، سائلا عن مكان التنين حتى يقوم باصطياده وإعداده للعشاء .

صوب الجميع نظراتهم إلى " موسى " وكأنها سهام موجهة إليه ، فأدرك " موسى " مغزى تلك النظرات ، فبادرهم قائلا :

- يبقى عصفور تانى ، مه العصافير كتير فى كل مكان .

أدرك سائق الحافلة أنه أضاع الكثير من الوقت فيما لا طائل من ورائه ، فأشار بيده إلى الركاب واتجه نحو الحافلة فتبعوه إليها ، واستقر أمام عجلة القيادة ، وأصدر نفيرا عاليا وأسرع يمخر الطريق ، وانصرف الباقون كل إلى حال سبيله .

اقتربت من " موسى " أخفف عنه ما ألم به ، لا سيما وأنا ألمح دلالات الذعر التى لا تزال تعشش بين قسمات وجهه ، قائلا :

- تفتكر ياموسى ، البتاع ده يكون راح فين .

انفرجت أساريره ، وتلاشت كل دلالات الذعر التى كانت بادية عليه ، ولمعت عيناه ، وأطل منها بريق صافى يبعث على الأمل ، ورسم ضحكة عريضة على ثغره ، وأخبرنى أنه لم يكن هناك شيئ مما ذكره ، لكنه عندما رأى ركاب الحافلة خفوا لنجدته ، فتفتقت تلك الفكرة فى ذهنه وذكر ما ذكره لينجو بنفسه من المأزق الذى أوقع نفسه فيه ، وقد اندمج فى دوره كثيرا حتى أنه صدق نفسه ، فلو أن هناك تنينا بهذا الحجم فلن يجد مكانا يختبئ به ، وأن كل ماحدث أنه عندما وجد نفسه وحيدا وسط تلك المساحات الشاسعة أراد أن يخرج الطاقة الكامنة بداخله مصدرا صيحاته ،

وأنه لم يكن يتوقع أن تحدث استغاثاته كل تلك الضجة ، ويسرع كل هؤلاء لنجدته ، والبقاء بجانبه غيرمبالين بخطورة ذلك التنين الضخم .

المؤلف فى سطور

- عبدالإله محمد شريف الديب .
- المواليد والإقامة : قرية كفر حسين ـ مركز زفتى ـ محافظة الغربية .
- حاصل على بكالوريوس المعهد العالى للدراسات التعاونية والإدارية .
- عمل رئيسا لشئون العاملين بإحدى المصالح الحكومية وترقى حتى أصبح مديرا عاما .
- شارك فى العديد من الندوات ومؤتمرات أدباء مصر فى الأقاليم .
- نشر له العديد والعديد من القصص القصيرة بالصحف والمجلات والدوريات الإقليمية .
- عمل مسئولا للجنة الثقافية بجمعية ايجابية للتنمية وحقوق الإنسان .
- شارك فى إصدار رابطة ملتقى (أدبية ـ فنية ـ ثقافية) إصدار جماعى .
- صدر له : " الليلة الأخيرة " ـ مجموعة قصصية عن دار النيل والفرات للنشر والتوزيع .

- **حاز لقب (أديب النيل والفرات) لفوزه بالمركز الثانى { مكرر } فرع القصة والرواية ـ ديسمبر 2017 .**
- **تم تكريمه من قبل دار النيل والفرات للنشر والتوزيع ـ والذى أقيم بنادى العلوم بمدينة العاشر من رمضان يوم 2017/12/7 .**
- **تم منحه وسام من المنظمة الدولية للتنمية وحقوق الإنسان فى 10 مايو 2018 .**
- **تم منحه وسام النيل والفرات من الطبقة الأولى فى 2018/5/26 من دار النيل والفرات للنشر والتوزيع .**
- **ورد إسمه ضمن مائة مبدع من كل أنحاء الوطن العربى بـ معجم المبدعين العرب (الجزء الأول) محتويا على السيرة الذاتية ونص إبداعى والصادر عن مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع مايو 2019 .**
- **له العديد من المجموعات القصصية والروايات تحت الطبع .**

المحتوى

م	القصة	صفحة
1	بطاقة الكتاب	4
3	الإهداء	5
4	تنويه	6
5	لكل ساقطة لاقطة	8
6	زينة الحياة	12
7	الوهم	18
8	عفوا ابن فلة فأنا لا أعرف لك أبا	22
9	الفريسة والصياد	26
10	أنا والمجذوب بمقهى أبو المطامير	36
11	عدالة السماء	42
12	وفاء سماح	46
13	تنويه ثان	51
14	الحكاية الأولى : لدغة مؤمن	52
15	الحكاية الثانية : النفس العفيفة	56
16	الحكاية الثالثة : ثورة الطبيعة	59
17	الحكاية الرابعة : الطائش	63
18	الحكاية الخامسة : الرجفات لا تأتى فرادى	66
19	الحكاية السادسة : قلة الليل ذئب	70
20	الحكاية السابعة : البشر ألوان	74
21	الحكاية الثامنة : لون آخر من البشر	79

22	الحكاية التاسعة : كل شئ قسمة ونصيب	85
23	الحكاية العاشرة : تنين موسى	90
24	المؤلف فى سطور	95
25	المحتوى	97

تمت بحمد الله